سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم

للأطفال

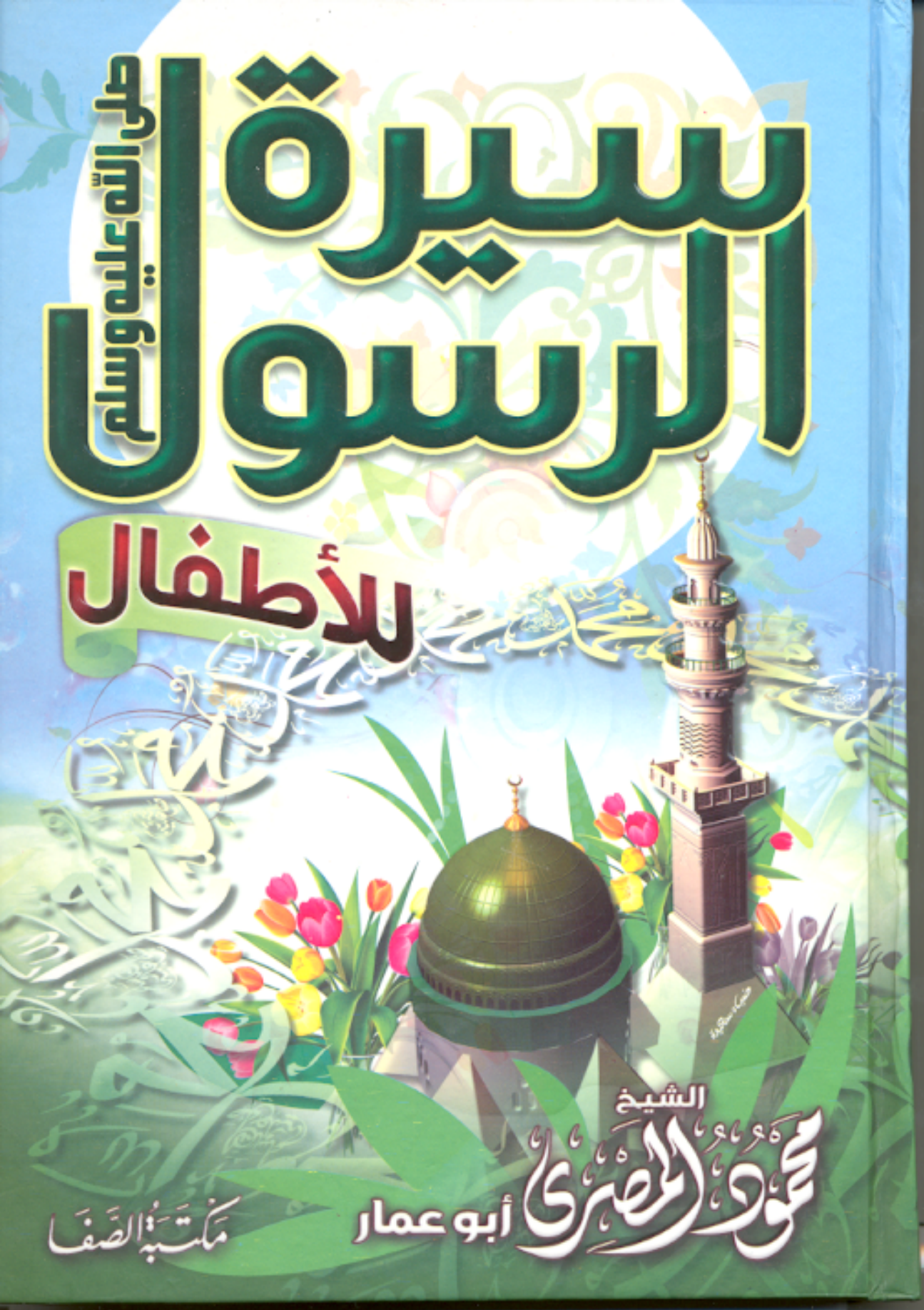

الشيخ
محمود المصري
أبو عمار

مكتبة الصفا

سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم

للأطفال

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا تقبل منا
إنك أنت
السميع العليم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

رقم الإيداع: ١٩٦٥٦ / ٢٠١٠

مكتبة الصفا
للنشر والتوزيع

أولاد الحاج عويس أمين صالح

١٢٧ ميدان الأزهر أمام مجامع الأزهر القاهرة - ٢٥١٤٢٣٢٠
ادرب الترك خلف مجمع الأزهر ت: ٠١٠١٤٣١١٥١ تليفاكس ٢٥١٤٧٩٧٤

سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم

للأطفال

الشيخ
محمود المصري
أبو عمار

مكتبة الصفا للنشر والتوزيع
تليفون ٢٥١٤٧٣٢٠ تليفاكس ٢٥١٤٧٩٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فالإسلام هو دين الهدى والنور، الذى لا سعادة للبشرية ولا أمن لها، ولا سعادة فى الدنيا والآخرة، إلا عندما تهتدى بهداه، وتستضىء بنوره، مخلصة فى عبوديتها لله الخالق، تأتمر بأمره، وتتبع منهجه، نابذة كل منهج من المناهج الأرضية المخالفة له.

والأولاد أمانة فى أعناق الوالدين، والوالدان مسؤولان عن تلك الأمانة، والتقصير فى تربية الأولاد خلل واضح، وخطأ فادح؛ فالبيت هو المدرسة الأولى للأولاد، والبيت هو اللبنة التى يتكون من أمثالها بناء المجتمع، وفى الأسرة

مقدمة الناشر

الكريمة الراشـدة التى تقوم على حماية حـدود الله وحفظ شـريعتـه، وعلى دعائم المحبة والمودة والرحـمة والإيثـار والتعـاون والتقـوى: ينشأ رجال الأمـة ونساؤها، وقـادتها وعظماؤها.

والولد قبل أن تـربيه المدرسة والمجـتمع، يربيـه البيت والأسـرة، وهو مـدين لأبويه فى سلوكـه الاجـتـمـاعى المستقيم.

ومكتبة الصفا تقوم بدورها فى توعية المجتمع بواجباته الدينية والاجتماعية كما تعودت دائمًا، فبعد أن وفقها الله لطبـاعـة ونشر القـرآن الكريم، ونشـر كـتب التـفـسيـر والحديث.

ونشر كـتب الداعيـة الكبيـر فضيلة الشـيخ «محـمود المصرى».

نقدم اليوم دُرة تضاف إلى مطبوعاتنا وهو كتاب «سيرة الرسول ﷺ للأطفال» لفضيلة الداعية محمود المصرى.

استطاع فـيه - حـفظه الله - أن يتحـدث مع الأطفال

بلغة عصرية جميلة.

يعلمهم فيه أصول دينهم، عن طريق القصص والحكايات.

وسترى أخى القارئ الكريم مدى السلاسة والسهولة التى تميزت بها عبارات هذا الكتاب حتى يناسب عقول رجال المستقبل.

ونعدكم أخى القارئ الكريم بمزيد من المطبوعات فى كافة المجالات، التى نرجو من الله عز وجل أن يتقبلها منا قبولاً حسنًا وأن ينفع بها الإسلام والمسلمين.

إنه نعم المولى ونعم النصير.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مكتبة الصفا

جعلها الله منارًا لخدمة العلم والدين

بين يدى الكتاب

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له، ومن يُضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٠٢).

(٢) سورة النساء: الآية: (١).

أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾(١).

أما بعد:

فإن الذى يحب أحدًا من البشر فإنه يحب أن يسمع سيرته دائمًا ويتمنى أن يعرف كل تفاصيل حياته. . . فكيف بمن يحب رسول الله ﷺ.

حبايبى الحلوين: لا شك أننا جميعًا نحب رسول الله ﷺ ونتمنى أن نعرف سيرته العطرة كاملة من بدايتها إلى آخر لحظة فى حياته ﷺ.

ومن أجل ذلك كتبت هذا الكتاب لحبايبى الحلوين من أجل أن يعرفوا كل شىء عن سيرة الحبيب ﷺ.

ولكن لابد أن نعلم أننا لا نتعلم سيرة الرسول ﷺ على أنها مجرد قصة نتسلى بها ولكن لنتأسى بالنبى ﷺ فى كل أقواله وأفعاله ولنجعل حياتنا كلها لنشر هذا الدين

(١) سورة الأحزاب: الآيتان: (٧٠، ٧١).

العظيم كما كان يفعل النبى ﷺ .

والآن أترككم جميعًا لتستمتعوا بأطيب وأجمل سيرة فى الكون كله. . . ألا وهى سيرة الرسول ﷺ .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه الفقير إلى عفو الرحيم الغفار

عمو / محمود المصرى

أبو عمار

ومن هنا كانت البداية

حبايبى الحلوين: وقبل أن نبدأ فى سرد سيرة الرسول ﷺ تعالوا بنا لنعرف حالة المجتمع الجاهلى قبل بعثة النبى ﷺ لنرى كيف جاء النبى ﷺ إلى الكون فأنار الله به الصدور المظلمة وهدى به القلوب الضالة وأنقذ به البشرية وأخرجها من الظلمات إلى النور فقد أرسله الله (عز وجل) رحمة للعالمين ﷺ .

حالة المجتمع الجاهلى قبل بعثة الحبيب ﷺ

لقد كان المجتمع الجاهلى قبل بعثة النبى ﷺ فى أسوأ حالة شهدها التاريخ حتى قال النبى ﷺ واصفًا هذه الفترة: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم

وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب»[1].

فكان من جملة العادات السيئة التى كانت منتشرة فى أرض الجزيرة قبل الإسلام:

(١) شرب الخمر:

فقد كانوا يشربون الخمر كثيرًا فى مجالسهم وندواتهم وبيوتهم وكانوا يتباهون بذلك.

(٢) القمار المعروف بالميسر:

وهذه عادة سكان المدن فى الجزيرة كمكة والطائف وصنعاء ويثرب وغيرها.

(٣) وأد البنات:

فقد كان الرجل يدفن ابنته بعد ولادتها مباشرة حية فى التراب خوفًا من العار.

(٤) قتل الأولاد:

فقد كانوا يقتلون الأولاد مطلقًا ذكورًا كانوا أو إناثًا.. وذلك عند وجود الفقر أو المجاعة أو حتى عند الخوف من

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٦٥) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

حدوث فقر شديد أو قحطٍ شديد.

فحرم الإسلام هذه العادة السيئة القبيحة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ﴾[1] ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾[2] والإملاق شدة الفقر.

(٥) تبرج النساء:

فقد كانت المرأة تخرج كاسية عارية كاشفة عن محاسنها أمام الرجال.

(٦) العلاقات المحرمة بين الرجال والنساء:

وذلك بالاتصال بينهم وتبادل الحب فى السر والوقوع فى الفواحش التى حرمها الله (جل وعلا).

(٧) شن الحروب على بعضهم البعض:

فقد كانوا يشنون الحروب على بعضهم البعض من أجل السرقة والسلب والنهب.

وكانت الحروب تجرى بينهم من أجل أتفه الأسباب.

---

(١) سورة الأنعام: الآية: (١٥١).

(٢) سورة الإسراء: الآية: (٣١).

فـربما قامـت الحرب بينهـم بسبب ناقـة أو بسـبب أن حصانًا سبق الآخر أو بسبب بئر ماء أو غير ذلك.

وكانت الحروب تستمر بينهم لسنوات طويلة مثل حرب البَسوس وداحس والغبراء وحرب بُعاث وحرب الفِجار.

(٨) عبادة الأصنام:

فقد كانوا يتاجـرون فى الأصنام بل ويعبدونها من دون الله (جل وعلا) وكانت الأصنام منصوبة حول الكعبة...

وكان من أشهـرها: (اللات - والعُزَّى - ومَناة - وهُبل - وإساف - ونائلة).

* فهذه بعض العـادات السيئة التى كـانت منتشرة فى أرض الجزيرة قبل بعثة النبى ﷺ.

* * *

العادات الحسنة
التى كانت فى المجتمع الجاهلى

ومع تلك الجاهلية التى كان يعيش فيها المشركون إلا أنه كانت هناك باقة عطرة من العادات الحسنة نُجملها فيما يلى:

(١) الصّدق... والمراد به صدق الحديث وهو خُلق كريم عُرف به العرب فى الجاهلية قبل الإسلام فزاده الإسلام تقريراً وتمتيناً.

(٢) قِرىَ الضيف وهو إطعامه، وهو من الكرم الذى يُحمد صاحبه عليه.

(٣) الوفاء بالعهود وعدم نكثها ومهما كلفت من ثمن وهو خُلقٌ سامٍ شريف وجاء الإسلام بتقريره وتأكيده قال تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾[1] فى بيان صفات

(١) سورة البقرة: الآية: (١٧٧).

المؤمنين من سورة البقرة.

(٤) احترام الجوار وتقرير مبدأ الحماية لمن طلبها، وعدم خفره مهما كانت الأحوال.

(٥) الصبر والتحمل.

(٦) الشجاعة والنجدة والأنفة وعدم قبول الذل والمهانة وهى صفات امتاز بها العرب نساءً ورجالاً، وأشعارهم وأقاصيصهم شواهد ذلك.

(٧) احترام الحرم والأشهر الحُرم، بعدم القتال فيها إلا من ضرورة، وتأمين الوافدين إلى الحرم، ولو كانوا ذوى سوابق فى الشر.

(٨) تحريمهم نكاح الأمهات والبنات.

(٩) اغتسالهم من الجنابة.

(١٠) المداومة على المضمضة والاستنشاق.

(١١) السواك والاستنجاء وتقليم الأظافر، ونتف الإبط.

(١٢) الختان للأطفال، والخفاض للبنات.

(١٣) قطعهم يد السارق اليمنى.

(١٤) الحج والعمرة.

فهذه جملة من العادات الحسنة الحميدة التى عُرف بها العرب فى الجاهلية قبل الإسلام. وإنها وإن لم تكن عامة فى كل فرد فإنها الطابع العام على غالبيتهم.

مكة تتهيأ لاستقبال النبوة

لقد هيأ الله (عز وجل) مكة من قديم الزمان لاستقبال النبى ﷺ ورسالته العظيمة.

فقد دلَّ الله (جل وعلا) خليله إبراهيم وابنه إسماعيل (عليهما السلام) على قواعد البيت ليرفعا تلك القواعد ويصبح ذلك البيت فيما بعد قبلة للنبى محمد ﷺ هو وأمته.

وقبل ميلاد النبى ﷺ فإنه (سبحانه وتعالى) دلَّ عبد المطلب جد النبى ﷺ على أصول بئر زمزم حتى حفرها واستخرجها.

* ولقد كان لعبد المطلب مكانة عالية عند أهل مكة حتى سلّموا له فى كل شىء.

قصة حفر زمزم

حبايبى الحلوين: وها هى قصة حفر بئر زمزم كما حكاها عبد المطلب جد النبى ﷺ .

يحكى عبد المطلب أنه كان نائمًا فى الحجر عند الكعبة فأتاه فى المنام من يقول له: احفر طَيبة. فقال عبد المطلب: وما طيبة؟ فلم يُجبه بشىء وذهب عنه.

فلما كان فى اليوم التالى نام فى نفس المكان فأتاه فى المنام من يقول له: احفر بَرَّه. فقال: وما بَرَّة؟ فلم يُجبه بشىء وذهب عنه.

وفى اليوم الثالث نام فى نفس المكان فأتاه فى المنام من يقول له: احفر المضنونة؟ فقال: وما المضنونة؟ فلم يُجبه بشىء، وذهب عنه.

وفى اليوم الرابع نام فى نفس المكان فجاءه من يقول له فى المنام: احفر زمزم لتسقى الحجيج الأعظم.

ووصف له مكانها أنها فى المكان الذى سينقر فيه غراب جناحاه أبيضان عند قرية النمل.

* فما كان من عبد المطلب إلا أنه أخذ ابنه الحارث ابن عبد المطلب وأخذ معه المعول (الفأس) وحفر فى نفس المكان الذى وقف فيه الغراب... وظل يحفر حتى وصل إلى حافة البئر فكبَّر وكانت قريش تراقبه فلما وجدوه يكبر علموا أنه وجد شيئًا ثمينًا فلما اقتربوا ورأوا البئر قالوا له: يا عبد المطلب هذه بئر أبينا إسماعيل وإن لنا فيها حقًّا فأشركنا معك فيها.

فقال: ما أنا بفاعل... إن هذه البئر من حقى أنا وحدى.

فقالوا: لن نتركك حتى تقسم البئر بيننا.

فقال لهم: اجعلوا بينى وبينكم حكمًا يحكم بيننا.

فقالوا: نتحاكم إلى كاهنة بنى سعد... وكانت بأشراف الشام.

* فخرج عبد المطلب ومعه نفر من بنى أمية...

وركب من كل قبيلة من قريش نفرٌ. . وكانت الأرض صحراء والمسافة طويلة فنفد الماء الذى مع عبد المطلب وأصحابه فطلبوا الماء من الذين حولهم فأبوا أن يعطوهم ماءً وقالوا: نحن بأرض صحراء ونخشى إن أعطيناكم الماء أن نهلك ونموت.

فقال عبد المطلب: إنى أرى أن يحفر كلُّ رجل منكم حفرته لنفسه بما لكم الآن من القوة، فكلما مات رجل دفعه أصحابه فى حفرته ثم واروه، حتى يكون آخرهم رجلاً واحدًا، فقالوا: نِعم ما أمرت به.

فحفر كل رجل لنفسه حفرة، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشًا.

ثمَّ إنَّ عبد المطلب قال لأصحابه.

والله إن انتظارنا للموت عجزٌ شديد. . فتعالوا بنا لنرحل عسى الله أن يرزقنا الماء ببعض البلاد.

فارتحلوا فلما قامت ناقة عبد المطلب انفجرت من تحت رجلها عين ماءٍ عذب فكبَّر عبد المطلب وكبَّر أصحابه ثم

نزل فشرب وشرب أصحابه وملأوا أوعيتهم كلها ثم دعا كل القبائل وقال لهم: هَلُمُّوا إلى الماء فقد سقانا الله.

فجاءوا فشربوا، واستقوا كلهم، ثم قالوا: قد والله قضى لك علينا، والله ما نخاصمك فى زمزم أبدًا، إن الذى سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الذى سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشدًا. فرجع ورجعوا معه، ولم يصلوا إلى الكاهنة، وخلوا بينه وبين زمزم».

قصة نذر عبد المطلب أن يذبح أحد أبنائه

وبعد المعاناة التى وجدها عبد المطلب من قريش فى قصة حفر زمزم نذر إن رزقه الله عشرة أولاد ليدافعوا عنه ويحموه أن يذبح أحدهم لله عند الكعبة.

فلما رزقه الله عشرة أولاد وعرف أنهم سيدافعون عنه ويحمونه من الناس أخبرهم بنذره ودعاهم إلى أن يساعدوه فى الوفاء بهذا النذر فأطاعوه وقالوا له: ماذا نفعل؟

فقال: ليأخذ كل واحد منكم قدحًا ويكتب فيه اسمه. . . ففعلوا ذلك فأخذ منهم الأقداح ودخل بها على (هُبل) وكان هو الصنم الذى يحتكمون إليه. . . وخرجت القُرعة على ولده الأصغر (عبد الله).

وكان عبد الله أحب أولاده إلى قلبه. . . فماذا يصنع؟ هل يطيع أمر الآلهة أم ماذا يفعل؟

وبعد حيرة شديدة أخذ عبد المطلب ابنه وحبيبه عبد الله وقرر أن يذبحه فلما أخذ السكين وأراد أن يذبح ولده عبد الله (والد الرسول ﷺ) خرجت إليه قريش لتمنعه من ذبح ولده الصغير عبد الله حتى لا تصبح عادة للعرب بعد ذلك فيذبحوا أولادهم.

وأشاروا عليه أن يذهب إلى عرافة تدَّعى معرفة الغيب فى أرض الحجاز ليستشيرها فى هذا الأمر.

فانطلقوا حتى وصلوا إليها وأخبروها بالخبر فقالت: اذهبوا عنى الآن حتى يأتينى تابعى فأسأله. . . فعادوا إليها فى الغد فسألتهم: كم الدية فيكم؟ فقالوا: عشرة من الإبل.

فقالت: ارجعوا إلى بلادكم وقربوا صاحبكم (عبد الله) وضعوا أمامه عشرة من الإبل ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح فإن خرجت على الإبل فاذبحوها وإن خرجت عليه فزيدوا عشراً من الإبل حتى تخرج القرعة على الإبل فاذبحوها فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم.

فعادوا إلى مكة وقام عبد المطلب يدعو الله ثم قرب ابنه عبد الله وعشراً من الإبل. وقام عبد المطلب عند (هُبل) يدعو الله.

ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله فزادوا عشراً من الإبل؛ فبلغت الإبل عشرين.

.... - إلى أن قال - : وقام عبد المطلب يدعو الله، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله، فزادوا عشراً من الإبل، فبلغت الإبل مئة، وقام عبد المطلب يدعو الله، ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل؛ فقالت قريش ومن حضر: قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب، فزعموا أن عبد المطلب قال: لا والله حتى أضرب عليها ثلاث

مـرات؛ فضـربوا على عبـد الله وعلى الإبل، وقام عـبد المطلب يدعـو الله، فـخرج القـدح على الإبل، ثم عادوا الثانية، وعبد المطلـب قائم يدعو، فضربوا فـخرج القدح على الإبل؛ ثم عادوا الثـالثة، وعبـد المطلب قائـم يدعو الله، فضربوا فخرج القدح على الإبل.

* فنحروا الإبل وتركوها للناس ليأكلوا منها لا يمنعهم منها أحدٌ.

* وبهذا كتب الله النجاة لعـبد الله الذى سيخرج من صلبه أطهر إنسان عرفته الدنيا... ألا وهو الحبيب محمد ﷺ.

* ولقد ذاع فى البلاد قصة نجاة عبد الله من الذبح.

وأعادت هذه القصة إلى أذهان الناس ذكـرى إسماعيل (عليـه السلام) جد العـرب الذى نجَّاه الله من الذبـح قبل ذلك وفداهُ بذبحٍ عظيم.

* وصـارت قصـة نجاة عـبـد الله من الذبح على كل لسان يتحدث بها الناس فى جَلَسَاتهم ومنتدياتهم.

* * *

زواج عبد الله من آمنة بنت وهب

وبعد فترة من الزمن كَبُرَ عبد الله وبلغ سن الزواج فأراد أبوه عبد الله المطلب أن يُزوجه وأن يفرح به.. فاصطحبه إلى بنى زُهرة ليُزوجه من فتاة تُسمى آمنة بنت وهب.

وتم الزواج وشهدت قريش عُرسًا لم تشهده من قبل واختلطت فرحة نجاة عبد الله بفرحة زواجه من آمنة بنت وهب.

* وبعد فترة قصيرة أخبرت آمنة بنت وهب زوجها عبد الله بأجمل خبر كان يتمناه... أخبرته بأنها حامل... ففرح بذلك فرحًا شديدًا... ولكنه لم يعلم أنه لن تكتمل فرحته فقد خرج فى مناكب الأرض بحثًا عن لقمة العيش وذهب فى رحلة الصيف إلى الشام فمرض فى الطريق ووافته المنية فمات فى طريق العودة.

وكانت آمنة بنت وهب تنتظر زوجها عبد الله لتكتمل سعادتها ولكن سرعان ما وصل إليها خبر موته ففاضت دموعها على خديها ولم تكن تتخيل أن تفقد زوجها بهذه السرعة.

* لقد مات عبد الله بالمدينة المنورة وهو راجع وترك هذه النسمة الطاهرة، وكأن القدر يقول له: قد انتهت مهمتك في الحياة، وهذا الجنين الطاهر يتولى الله عز وجل بحكمته ورحمته تربيته وتأديبه وإعداده لإخراج البشرية من الظلمات إلى النور.

* * *

قصة أصحاب الفيل

كان ياما كان.

كان هناك رجل اسمه أبرهة... وكان أبرهة الحبشى قد كلفه حاكم الحبشة النجاشى بأن يكون أميراً على صنعاء (فى اليمن).

وكان أبرهة نصرانيًّا... وكذلك كان النجاشى حاكم الحبشة.

وكان يسمع كثيراً عن الكعبة وبيت الله الحرام..

وأن العرب يحجون إلى هذا البيت، فامتلأ قلبه حقداً على العرب وجلس مع نفسه يفكر كيف يصرف العرب عن هذا البيت؟

وبعد تفكير عميق هداه شيطانه إلى أن يبنى كنيسة كبيرة فى صنعاء سماها «القُلَّيس» لم يرَ الناس مثلها فى زمانهم.

ثم كتب إلى النجاشى حاكم الحبشة قائلاً له: إنى قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يُبن مثلها لملك كان قبلك أبدًا. . . وإنى لن أهدأ أبدًا حتى أصرف إليها حج العرب بدلاً من أن يحجوا إلى الكعبة.

* وكان أبرهة الحبشى قد سخَّر أهل اليمن فى بناء هذه الكنيسة الخسيسة وسخرهم فيها أشد أنواع التسخير.

وكان من تأخر عن العمل حتى تطلع الشمس يقطع يده لا محالة.

وجعل ينقل إليها من قصر بلقيس رخامًا وأحجارًا وأمتعة عظيمة وركَّب فيها صُلبانًا من ذهب وفضة.

وجعل فيها منابر من عاج وأبنوس وجعل ارتفاعها عظيمًا جدًّا واتساعها باهرًا.

* ولكنه رأى أن العرب لا تتجه إلا إلى البيت العتيق، ورأى أهل اليمن أنفسهم يَدَعون البيت الذى بناه، وينصرفون إلى مكة؛ . . . واشتد غيظُ العرب، واشتعلت

نيران الحقد فى نفوسهم فقام رجل من كنانة فخرج من أرضه حتى وصل إلى صنعاء ودخل الكنيسة فى وقت لم يكن فيها أحد وقضى حاجته فى الكنيسة وترك فيها تلك النجاسات وخرج.

فلما علم أبرهة بذلك، غضب غضبًا شديدًا وقال: من صنع هذا؟

فقيل له: صنعه رجل من أهل هذا البيت الذى تحجُّ العرب بمكة لما سمع بقولك: إنك تريد أن تصرف حجَّ العرب إلى بيتك هذا فغضب فجاء فأحدث فيها.

فغضب أبرهة عند ذلك وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه.

ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت.

ثم سار وخرج معه بالفيل وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفظعوا به ورأوا جهاده حقًا عليهم حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام.

فخرج إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم

يقال له ذو نفر.

فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام وما يريده من هدمه وإخرابه. فأجابه من أجابه إلى ذلك، ثم عرض له فقاتله.

فهُزم ذو نفر وأصحابه وأُخذ له ذو نفر فأُتى به أسيرًا.

فلما أراد قتله قال له ذو نفر: يا أيها الملك لا تقتلنى فإنه عسى أن يكون بقائى معك خيرًا لك من القتل. فتركه ولم يقتله وحبسه عنده فى وثاق وكان أبرهة رجلاً حليمًا.

* ومضى أبرهة فى طريقه يريد هدم الكعبة.

ولما وصل إلى أرض (خثعم)، خرج له رجل اسمه نُفيل بن حبيب الخثعمى ومعه رجال أقوياء من قبيلة خثعم «وهما: شهران وناهس» مع جماعة أخرى من قبائل العرب، فقاتلوا أبرهة الحبشى، فهزمهم أبرهة وأخذ نُفيل ابن حبيب أسيرًا.

فلما أراد قتل نُفيل، قال له نُفيل: أيها الملك! لا تقتلنى، فإنى سأعمل معك وسأكون لك دليلاً فى أرض العرب أدلك على الطريق. فتركه أبرهة وخلَّى سبيله على أن يكون دليلاً له يُعرفه الطريق.

* فلما وصل أبرهة إلى بلاد الطائف، خرج إليه رجل اسمه مسعود بن معتب بن مالك ومعه جماعة من رجال ثقيف، فقالوا له: أيها الملك: إنما نحن عبيدك وسوف نكون طوع أمرك وسنرسل معك أيضًا مَنْ يدلك على الطريق إلى الكعبة..

* وسار أبرهة حتى وصل إلى مكان اسمه (المغمس) فأرسل رجلاً من الحبشة يقال له: الأسود بن مقصود حتى وصل إلى مكة، فأخذ أموال تهامة من قريش وغيرهم وأخذ مائتى بعيرٍ لعبد المطلب بن هاشم (جَدّ النبى ﷺ)... وكان عبد المطلب كبير قريش وسيدهم.

فأرادت قريش وكنانة وهذيل ومن كان من الحرم أن

يقاتلوا أبرهة ولكنهم أحسوا بأنهم لن يقـدروا عليه فتركوا ذلك.

* **وهناك بعث أبرهة رجلاً اسـمه:** حناطة الحمـيرى إلى مكة وطلب منه أن يسأل عن سيد أهل هذا البلد... وأن يخبره بأن أبرهة مـا جاء ليقاتلهم وإنما جاء لهـدم الكعبة، فإن تركوه يهدم الكعبة، فلن يتعرض لهم.. وإن تعرضوا له فسوف يقتلهم.

ثم قال له أبرهة: فإن وجدت سيد أهل مكة لا يريد حربى فـأتنى به، فلمـا دخل حناطة مكة، سـأل عن سـيد قـريش وشريفها، فقيل له: عبد المطلب بن هاشم.

فجاءه فقال له: ما أمره به أبرهة.

فقال له عـبد المطلب: والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام.

فإن كـان الله (عز وجل) سيـحفظ بيـته ويحمـيه من أبرهة فهو بيته وحـرمه وإن يترك أبرهة يهدمه فليس عندنا

أحدٌ يستطيع أن يمنع أبرهة.

* فقال له حناطة: انطلق معى إليه فإنه قد أمرنى أن آتيه بك.

فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى وصل إلى جيش أبرهة، فسأل عن (ذى نفر)؛ لأنه كان صديقًا له، فعلم أنه محبوس عند أبرهة، فلما دخل عليه قال له: يا ذا نفر هل عندى حيلة نتخلص بها من أبرهة؟

فقال ذو نفر: وهل أملك أى حيلة وأنا رجل أسيرٌ عنده أنتظر أن يقتلنى فى أى وقت... لكنى أعرف شابًّا طيبًا اسمه: أنيس وهو سائس الفيل، فسوف أرسل إليه وأوصيه بك وأعرفه قدرك ومكانتك وأطلب منه أن يستأذن لك لتدخل على أبرهة وتكلمه وسأجعله يشفع لك عند أبرهة بخير إن استطاع.

فقال عبد المطلب: يكفينى هذا يا صديقى.

فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له: عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة، يطعم الناس بالسهل والوحوش فى

رءوس الجبال، فاستأذن له عليه وانفعه عنده بما استطعت.

قال: أفعل.

فكلم أنيس أبرهة فقال له: أيها الملك! هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب عين مكة وهو الذى يُطعِم الناس بالسهل والوحوش فى رءوس الجبال، فائذن له عليك، فليكلمك فى حاجته، فأذن له أبرهة قال: وكان عبد المطلب أوسم الناس وأعظمهم وأجملهم، فلما رآه أبرهة أجلَّه وأكرمه عن أن يجلسه تحته وكره أن تراه الحبشة يُجلسه معه على سرير مُلكه.

فنزل أبرهة عن سريره، فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جانبه، ثم قال لترجمانه: قل له ما حاجتك؟ فقال له ذلك الترجمان... فقال: حاجتى أن يرد علىَّ الملك مائتى بعير أصابها لى، فلما قال له ذلك، قال أبرهة لترجمانه: قل له لقد كنت أعجبتنى حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى.

أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك وتترك بيتًا هو

دينك ودين آبائك قد جئت لأهدمه، لا تكلمنى فيه؟

فقال له عبد المطلب: إنى أنا ربُّ الإبل وإن للبيت ربًّا يحميه.

فقال أبرهة: لا يستطيع أحدٌ مهما كان أن يحمى البيت منى أبدًا.

فقال عبد المطلب: أنت وما تريد.

وهنا أمر أبرهة جنوده فردُّوا على عبد المطلب مائتى بعير.

* فلما خرج عبد المطلب، ذهب إلى قريش وأخبرهم الخبر وأمرهم أن يخرجوا فورًا من مكة وأن يتحصنوا فى رءوس الجبال.

* ثم قام عبد المطلب وأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفرٌ من قريش يدعون الله ويطلبون منه النصر على

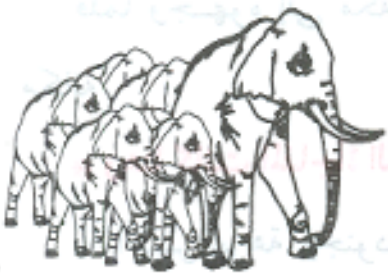

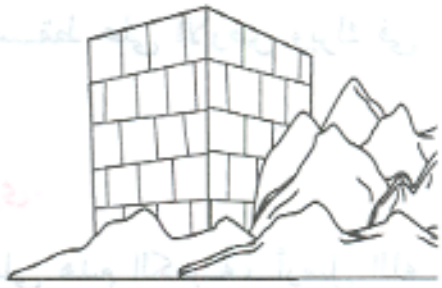

أبرهة وجنده.

* فلما أصبح أبرهة، تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله المرعب وجيشه الكبير وكان اسم الفيل: (محمود).

فلما وجهوا الفيل إلى مكة، أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل، ثم أخذ بأذنه فقال: ابرك محمود وارجع راشدًا من حيث أتيت، فإنك فى بلد الله الحرام وأرسل أذنه. فبرك الفيل... أى: سقط على الأرض.

* وهنا خرج نفيل بن حبيب يجرى حتى صعد الجبل.

وأما أبرهة وجنوده فقد ضربوا الفيل؛ ليقوم من مكانه؛ فأبى فضربوا رأسه بالفأس ليقوم فأبى.

فوجهوه راجعًا إلى اليمن فقام يهرول ويجرى..

ووجهوه إلى المشرق، فقام يهرول ويجرى.

فلما وجهوه إلى مكة، سقط على الأرض وبرك فى مكانه.

*** وهنا كانت المفاجأة الكبرى.**

لما أصر أبرهة وجنوده على هدم الكعبة، أرسل الله

عليهم طيرًا من البحر أمثال الخطاطيف. . . مع كل طائر منهم ثلاثة حجارة يحملها. . . حجرٌ في منقاره وحجران في رجليه أمثال الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحدًا إلا أهلكته.

فخرجوا هاربين مرعوبين يبحثون عن الطريق ويسألون عن نُفيل بن حبيب؛ ليدلهم على الطريق إلى اليمن.

* وأُصيب أبرهة في جسده وخرجوا به تسقط أناملُهُ أنملة أنملة. . كلما سقطت أنملة، اتبعتها منه مِدّة تسيل قيحًا ودمًا حتى وصلوا به إلى صنعاء، فانصدع صدره عن قلبه حتى مات.

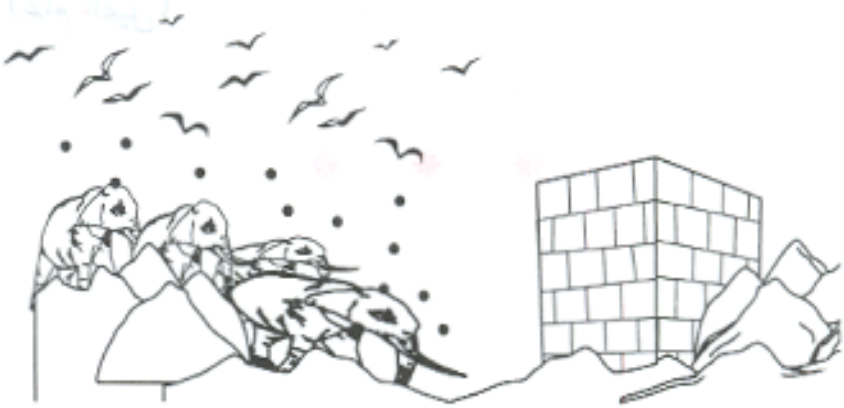

* وأما أبو رغال الذى بعثته قبيلة ثقيف مع أبرهة ليدله على الطريق إلى مكة، فقد مات فى الطريق بمكان يقال له: (المغمس) فكان العرب يرجمون قبره بالحجارة بعد موته.

* وأما قائد الفيل وسائسه فقد أعمى الله أبصارهما فكانا يجلسان فى الطرقات بمكة يسألون الناس الطعام والشراب.

* وهذا كله جزاء من تعرض لهدم بيت الله الحرام.

فلقد حمى الله بيته الحرام؛ لأنه سيكون قبلة لسيد ولد آدم محمد بن عبد الله ﷺ الذى وُلد فى نفس العام (عام الفيل).

* * *

ميلاد النبى ﷺ

كان أهل الكتاب يتحدثون فيما بينهم كثيراً عن أن نبيًّا قد اقترب ظهوره. . . وقد كان الرسل فيما مضى يتتابعون ولا يكاد الناس يعيشون فى عصر من العصور بلا نبى أو رسول.

ولكن الأمر تغير بعد عيسى (عليه السلام) فقد مرَّ حوالى ستمائة عام من بعد رفعه إلى السماء ولم يأتِ نبىٌّ جديد. . . فكان الكل ينتظر قدوم النبى الجديد. . وبخاصة بعد أن امتلأت الأرض بالمفاسد والضلالات فقد ازدادت الحاجة إلى مبعث نبى آخر الزمان ﷺ.

* وفى يوم الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول وُلد الحبيب المصطفى ﷺ فى دار أبى طالب بشِعب بنى هاشم وذلك فى عام الفيل. فكان ميلاده بمثابة الشمس التى أضاءت الكون كله بنور الإيمان والتوحيد.

* ولكى تعـــرف أن النبى ﷺ هو نور أرسـله الله للكون كله ليني ـر قلوبهم بنور الإيمان فلقـد رأت أمه آمنة حين ولدته نورًا يخرج منها أضاءت منه قصور الشام.

قال رسول الله ﷺ: «أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمى أنه يخرج منها نور أضاءت منه قصور الشام»(١).

ودعوة إبراهيـم عليه السلام هـى قوله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٢).

وبشرى عـيسى. كما أشار إلـيه قوله عز وجل حـاكيًا عن المسيح عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾(٣).

وقوله: «ورأت أمى كأنه خرج منهـا نور أضاءت منه قصور الشام».

---

(١) صحيح: رواه أحمد (١٦٧١٢) مـسند الشاميين، وصححه العلامـة الألبانى رحمه الله فى السلسلة الصحيحة (١٥٤٥).

(٢) سورة البقرة: الآية: (١٢٩).

(٣) سورة الصف: الآية: (٦).

قال ابن رجب: «وخروج هذا النور عند وضعه إشارة إلى ما يجيء به من النور الذى اهتدى به أهل الأرض، وزال به ظلمة الشرك منها، كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

استبشار عبد المطلب بميلاد حفيده المبارك

ولما وُلد النبى ﷺ كانت أول من أرضعته ثُويبة جارية عمه أبى لهب ثم أقبلت أُمه آمنة بنت وهب عليه وضمته إلى صدرها الحنون.

وكانت حاضنته أم أيمن بركة الحبشية، وأم أيمن هذه كانت وصيفةً لعبد الله بن عبد المطلب، فلما ولدت آمنةُ محمدًا ﷺ بعدما توفى أبوه، كانت أم أيمن تحضنه

(١) سورة المائدة: الآيتان: (١٥-١٦)

حتى كَبُرَ النبى ﷺ فأعتقها ثم أنكحها زيد بن حارثة، فولدت له أسامة، وقد توفيت بعدما توفى النبى ﷺ بخمسة أشهر.

* المهم أنه لما وُلد النبى ﷺ أرسلت أمه آمنة إلى جده عبد المطلب لتبشره بقدوم حفيده فجاء مستبشرًا وأخذه ودخل به الكعبة ودعا الله وشكر له وقال: سأسميه محمدًا حتى يحمده أهل السماء وأهل الأرض وكانت فرحته شديدة بقدوم النبى ﷺ فقد كان يرى فى مَقدمه عوضًا عن ابنه عبد الله الذى مات فى ريعان الشباب.

* وأُعدت الموائد وعمَّت الأفراح فقد كانت فرحة الناس بقدوم النبى ﷺ فرحة كبيرة فهو ابن الذبيحين: إسماعيل جده الأكبر وعبد الله والده... وكان النبى ﷺ سببًا فى نشر السعادة فى هذا الكون منذ أول لحظة جاء فيها إلى هذا الكون.

* * *

قصة رضاع الحبيب ﷺ

لقد كان من عـادة العرب فى هذا الزمان أن الطفل إذا وُلد فإنهم يرسلونه إلى البـادية فى الصحراء ليقـضى مدة الرضاعة هناك فينشأ قويًّا شديدًا فصيحًـا فى اللغة العربية عالمًا بفنون الرمى بالرمح والنبل.

فكانت الأم إذا ولدت فـإنها ترسل وليـدها إلى إحدى المرضعات فـى البادية لتُرضعه وتـربيه ثم تعيده إليـها مرة أخرى.

* وفى هذا العام حدث جَـدبٌ وقحطٌ شديد فى بادية بنى سعد بن بـكر فقد انقطع عنها المطر منذ شـهور حتى أُصيـبت الأرض بالجفـاف وأصبـحت أكثـر الأغنام هزيلة ضعيفة.

* فجاءت مـجموعة من النساء من بـنى سعد بن بكر من أجل أن تحـصل كل واحدة منـهن على طفلٍ من بيتٍ غنى حتى تُـرضعه وتحـصل على المال الذى يعوضـها عن

خسارة الجدب والجفاف الذى حلَّ ببلادهم.

* وكان من بين هؤلاء النسوة حليمة السعدية التى خرجت لتبحث عن طفل من بيت غنى حتى ترضعه وتحصل على المال الذى يعوضها عن تلك الخسائر.

وكانت حليمة تركب على حمارة هزيلة ضعيفة لا تستطيع المشى إلا ببطءٍ شديد.. فكان ذلك سببًا فى أن كل النساء سبقنها إلى مكة وحصلت كل واحدة منهن على طفلٍ رضيع من بيتٍ غنى ولقد عُرض النبى ﷺ على كل النساء فرفضن أن يأخذنه لأنه يتيم... فكانت كل واحدة تقول: إذا أخذت هذا الطفل اليتيم فمن الذى يعطينى المال ويكرمنى بالهدايا.

* وأخيرًا وصلت حليمة إلى مكة بعد عناءٍ شديد ولم تجد إلاَّ النبى ﷺ فرفضت فى بداية الأمر لأنه يتيم وخشيت ألا تجد من يدفع لها ثمن الرضاعة... وكانت حليمة تحمل فى حجرها ابنها الصغير وتحاول أن تُرضعه فلم تجد فى صدرها إلا لبنًا قليلاً فقد تأثر جسدها بالجفاف

والقحط الذى حَلَّ ببلادها.

* وكان النبى ﷺ فى تلك اللحظة لم يرضع إلا مرة واحدة من صدر ثويبة خادمة عمه أبى لهب... واحتاج إلى أن يرضع مرة أخرى.

وفجأة سمعوا طرقًا على الباب فقد عادت حليمة لتأخذ هذا الطفل اليتيم المبارك لتُرضعه لأنها لم تجد غيره... وهى لا تعرف أنها ستُرضع أعظم طفل فى الكون كله.

* وأخذت حليمة هذا الطفل اليتيم المبارك محمد بن عبد الله ﷺ.. وعادت به إلى زوجها الذى كان قد جاء إلى مكة بحثًا عن أى عمل فلم يجد... وكانت حليمة قد أخبرته أنها ستأخذ هذا الطفل اليتيم عسى الله أن يجعل فيه الخير والبركة... وحتى لا تعود بلا طفلٍ تُرضعه فوافقها على ذلك.

فلما عادت إليه وأخرجت ثديها لتُرضع النبى ﷺ وكان صدرها منذ ساعات ليس فيه إلا لبنٌ قليل جدًا حتى

إن طفلها لم يشبع - وجدت صدرها قد امتلأ باللبن الكثير فتعجبت... وأخذ النبى ﷺ يرضع حتى شَبِعَ... ثم قامت حليمة وأرضعت ابنها حتى شبع هو أيضًا.

وبعد لحظات قام زوجها إلى الناقة التى كانت معه فوجد ضرعها قد امتلأ باللبن بعد أن كان ليس فيه قطرة لبن.. فحلبها وشرب هو وزوجته حليمة حتى شبعا فى تلك الليلة.

فقال لزوجته حليمة: والله لقد أخذنا طفلاً مباركًا وإن الله سيُكرمنا بسببه غاية الإكرام.

* ولما حانت لحظة الرجوع إلى بادية بنى سعد قامت حليمة لتركب حمارتها الضعيفة الهزيلة وهى مشفقه عليها فقد زاد حملها طفلاً آخر... وإذا بها تجد أن الحمارة الضعيفة أصبحت قوية بل وسريعة... وبعد أن كانت النساء يسبقنها وهم فى طريقهم إلى مكة وإذا بحليمة تسبقهم وهم فى طريق العودة إلى بادية بنى سعد.

* **فتعجبت النساء وقلن لحليمة:** يا حليمة ما الذى حدث لحمارتك فقالت: لقد حملت عليها غلامًا مباركًا.

* وعادت حليمة إلى بادية بنى سعد.. وما زال الجفاف والقحط يعم البلاد... فكانت تخرج بأغنامها بحثًا عن المرعى فترجع وقد شبعت أغنامها.. وترجع أغنام الناس جياعًا.

فكانوا يقولون: اذهبوا بغنمكم حيث تذهب أغنام حليمة حتى تشبع... فيذهبون معها فى نفس المكان فتعود أغنامها شباعًا وتعود أغنامهم جياعًا.

* وبعد فترة قصيرة نزلت الأمطار وخرج الزرع والنبات وعمَّت البركة فى كل مكان بقدوم هذا الطفل المبارك.

* وكان النبى ﷺ يَكْبُر بسرعة كبيرة... فكان يشب فى اليوم شباب الغلام فى الشهر ويشب فى الشهر شباب الغلام فى السنة.

وما هى إلا سنتان حتى صار هذا الطفل المبارك كأنه

غلام كبير حتى جاوز السادسة من عمره.

وكانت حليمة قد أحبته حبًا شديدًا وكانت لا تتحمل فراقه أبدًا... فقد كانت تحمله معها إلى المرعى الذى ترعى فيه أغنامها فإذا بأغنامها قد امتلأ ضرعها باللبن.

* ولما بلغ النبى ﷺ سنتين أخذته حليمة إلى مكة وهى فى غاية الحزن لفراقه.. فلما وصلت إلى أمه آمنة قالت لها: والله ما رأيت صبيًا أعظم بركة منه وإنى أخشى عليه من الأمراض التى تنتشر فى مكة فدعيه يبقى معى عامًا آخر وسأرده لك بعدها مباشرة... وبعد إلحاحٍ شديد وافقت أمه على أن تأخذه حليمة مرة أخرى وعادت به حليمة إلى بادية بنى سعد وهى فى قِمَّةِ السعادة والسرور لرجوع النبى ﷺ معها مرة أخرى.

* * *

حادثة شق الصدر

وفى يوم من الأيام خرج النبى ﷺ ومعه أخوه من الرضاعة - ابن حليمة السعدية - وذهبا ليلعبا سويًّا ونسيا أن يأخذا طعامًا فقال النبى ﷺ لأخيه: اذهب وائتنا بالزاد.

فذهب وأتى بالزاد... وبينما هما يلعبان إذ أقبل رجلان عليها ثياب بيض فأخذا النبى ﷺ فأضجعاه وشقَّا بطنه يقول النبى ﷺ: «فشقَّا بطنى، ثم استخرجا قلبى، فشقاه فأخرجا منه علقتين سوداوين، فقال أحدهما لصاحبه: ائتنى بماء ثلج، فغسلا به جوفى، ثم قال: ائتنى بماء بَرَد، فغسلا به قلبى، ثم قال: ائتنى بالسَّكينة[1]، فذرَّاها فى قلبى، ثم قال أحدهما لصاحبه: خِطه، فخاطه وختم عليه بخاتم النبوة.

(١) السكينة: الطمأنينة والوقار.

فقال أحدهما لصاحبه: اجعله فى كفة، واجعل ألفًا من أمته فى كفة، . . قال النبى ﷺ : «**فإذا أنا أنظر إلى الألف فوقى، أُشفق أن يخرَّ علىَّ** [1] **بعضهم، فقال المَلَك: لو أن أمته وُزنت به لمال بهم، ثم انطلقا وتركانى**»[2].

* فلما رأى ذلك أخوه فزع وخاف خوفًا شديدًا وعاد إلى أمه حليمة مسرعًا وقد تغير لونه.

فقالت له أمه: مالك يا بُنى.

فحكى لها كل ما رآه. . . فخرجت حليمة هى وزوجها وهما فى غاية الخوف على محمد ﷺ فوجداه قائمًا قد تغير لونه فلما رآهما أجهش بالبكاء. . فأخذته حليمة فى حضنها وسألته: ما الذى حدث لك؟ فحكى لها كل ما حدث.

فقال زوجها: والله إنى أخشى أن يكون قد أُصيب بمكروهٍ فهيا لنرده إلى أهله قبل أن يحدث له شىء فيظن

(١) يخر: يسقط.

(٢) **حسن:** رواه الدارمى (١٣) فى مقدمة سننه، وأحمد (١٧١٩٦) مسند الشاميين، وحسنه العلامة الألبانى رحمه الله فى السلسلة الصحيحة (٣٧٣).

الناس أننا قد أهملنا رعايته.

فذهبا به إلى أمه آمنة... فلما رأتهم آمنة تعجبت وقالت: ما الذى أتى بكما قبل أن أطلبه منكما وقد كنتما حريصين كل الحرص على بقائه عندكما.

فقالت حليمة: لا شيء سوى أنه قد أتم فترة الرضاعة منذ زمن فأحببنا أن نرده إليكم قبل أن يُصاب بمكروه.

فقالت: إنه قد حدث شيء ولابد أن تخبرينى يا حليمة.

فأخبرتها حليمة بما حدث... فتبسمت أم النبى ﷺ وقالت: كلا والله، لا يصنع الله ذلك له، إن لابنى شانًا، أفلا أخبركما خبره، إنى حملت به، فوالله ما حملت حملاً قط كان أخف علىّ منه، ولا أيسر منه، ثم رأيت حين حملته خرج منى نور أضاء منه أعناق الإبل ببُصرى ثم وضعته حين وضعته، فوالله ما وقع كما يقع الصبيان، لقد وقع معتمدًا بيديه على الأرض رافعًا رأسه إلى السماء فدعاه عنكما فقبضته وانطلقنا».

فراق مؤلم

وانصرفت حليمة رضي الله عنها وقد امتلأ قلبها حزنًا وأسى على فراق الحبيب ﷺ ودموعها تسيل على خدها.

ولكنها كانت تشعر فى قرارة نفسها أن الله (عز وجل) سيجمع بينها وبين الحبيب ﷺ وأنها ستراه مرة أخرى.

وفاة أمه (عليه الصلاة والسلام)

أخذت آمنة طفلها المبارك واحتضنته وأغدقت عليه حبًّا وحنانًا فهى تشعر أنه خير غلام أنجبته أرض العرب.

* وفى يوم من الأيام أخذته أمه لزيارة أخوال أبيه بنى عدى بن النجار بعد أن استأذنت من جده عبد المطلب الذى كان لا يطيق فراق حفيده أبدًا. . وكان النبى ﷺ قد بلغ السادسة من عمره.

* فخرجت آمنة متجهة إلى يثرب (المدينة المنورة) ومعها ابنها المبارك ومعها أم أيمن (جارية عبد المطلب).

ولما وصلوا يثرب ورآه أخـواله فرحوا به فرحًـا شديدًا ولم يأذنوا لأمه بالعودة إلا بعد إلحاحٍ شديد.

* وفى طريق الـعـودة من يثـرب إلـى مكة... وفى مكان بين مكـة والمدينة اسـمـه الأبواء أحـست آمنة بآلام شديدة أوقفتها عن المسير... ونظر محمد ﷺ إلى أمه فـإذا هى فى النزع الأخيـر فنزفت دمـوعه وهو يرى أمـه تموت أمام عينيه.

ومـــاتت أمـه بالأبواء ودُفـنت هناك... فنظـر النبى ﷺ إلى أم أيمن وبكى وقال لـها: يا أم أيمن أنت أمى بعد أمى.

* يا له من موقف مؤثر... ها هو النبى ﷺ يفقد أمه بعدما فقد أباه وهو جنين فى بطن أمه.

* وها هو فى هذه اللحظة الحـزينة يصبح بلا أب ولا أم وهو الطفل الصـغـير الذى لم يتـجـاوز السادسـة من عمره.

* وفى هذه اللحظة احتـضنته أم أيمن ودموعـها على

خديها وعادت به إلى مكة وتوجهت به إلى بيت جده عبد المطلب الذى احتضن حفيده وبكى بعدما علم ما حدث له.

* وأوقفت أم أيمن حياتها كلها لرعاية النبى ﷺ.. فغمرته بعطفها وحبها وحنانها... وكان جده يقربه إليه ويحبه حبًا شديدًا.

وهكذا عوَّضه الله بحنان جده وحاضنته أم أيمن عن حنان الوالدين وكان عبد المطلب يخاف عليه خوفًا شديدًا فكان يوصى أم أيمن ويقول لها: لا تغفلى لحظة واحدة عن محمد ﷺ.

فكان رسول الله ﷺ مع جدّه عبد المطلب بن هاشم، وكان يُوضَع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة، فكان بَنُوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحدٌ من بنيه إجلالاً له. قال: فكان رسول الله ﷺ يأتى وهو غلام حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب، إذا رأى ذلك

منهم: دعوا ابنى، فوالله إن له لشأنًا؛ ثم يُجلسه معه على الفراش، ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع.

وفاة جده عبد المطلب

وبعد فترة يسيرة نام عبد المطلب على فراش الموت... وقد كان يتمنى أن يعيش طويلاً من أجل أن يرعى حفيده المبارك ﷺ.

ولكن جاءت اللحظة الحاسمة ومات عبد المطلب جد النبى ﷺ وكان النبى ﷺ يبلغ من العمر ثمان سنوات.

وكان عبد المطلب قد أوصى ابنه أبا طالب فى اللحظات الأخيرة أن يكفل محمدًا ﷺ ويرعاه... فلما مات عبد المطلب كفل أبو طالب النبى ﷺ وأخذه إلى بيته ليعيش مع أولاده..

* * *

وعرفت البركة طريقها إلى هذا البيت

كان أبو طالب فقيراً وكانت زوجته تشعر بأن أولادها لا يشبعون من الطعام أبدًا فلما عاش الحبيب ﷺ بينهم دخلت البركة لأول مرة فى هذا البيت الكريم وبخاصة فى طعام الأولاد إذا أكل معهم الحبيب ﷺ .

* فكان عيال أبى طالب إذا أكلوا جميعًا أو فُرادى لم يشبعوا وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا، فكان أبو طالب إذا أراد أن يُغذيهم أو يُعشيهم يقول: كما أنتم حتى يأتى ابنى، فيأتى رسول الله ﷺ فيأكل معهم فيفضل من طعامهم.

وإن كان لبنًا شرب رسول الله ﷺ أولهم، ثم تناول القعب - القدح - فيشربون منه، فيروون عن آخرهم من القعب الواحد، وإن كان أحدهم ليشرب قعبًا وحده، فيقول أبو طالب. إنك لمبارك.

* * *

ويزداد الحب يومًا بعد يوم

وكانت فاطمة بنت أسد رضي الله عنها ترى كل هذه البركات التى دخلت بيتها لأول مرة وهى لا تكاد تصدق نفسها فكانت تزداد حبًّا للنبى ﷺ يومًا بعد يوم حتى كان الحبيب ﷺ يشعر بأن الله رزقه بتلك الأم الرحيمة ليعوضه عن موت أمه. . فها هى ترعاه فى طفولته وشبابه وتخصه بالتقدير والاحترام وتشمله بعطفها وحنانها. . . وظلت ترعاه إلى أن تزوج بخديجة رضي الله عنها.

ونشأ الحبيب ﷺ بين ينبوع الرحمة ونهر الحنان فاطمة بنت أسد وأم أيمن رضي الله عنهما فكانت كل واحدة منهما ترعاه وتخصه بالرحمة والحنان وكأنها أمه التى ولدته.

❊ ❊ ❊

النبى ﷺ يرعى الغنم

وكان النبى ﷺ ينظر إلى حال عمه أبى طالب الذى كان فقيرًا صاحب عيالٍ فأراد أن يساعده ويخفف عنه الحمل الثقيل... فقرر أن يبحث عن عملٍ ليساعد به عمه.

ويبدأ النبى ﷺ فى رعى الأغنام ليساعد عمه وليرد إليه شيئًا من المعروف الذى أسداه إليه.

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «ما بعث الله نبيًا إلا رعى الغنم».

فقال أصحابه: وأنت؟

فقال: «نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة»[1].

* * *

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٢٦٢) كتاب الإجارة.

قصة بحيرا الراهب

لقد كان أبو طالب يحب النبى ﷺ أكثر من حبه لأولاده وكان لا يُطيق فراقه لحظة واحدة.

وفى يوم من الأيام أراد أبو طالب أن يخرج إلى الشام فى تجارة له فلم يستطع أن يسافر وحده ويترك محمدًا ﷺ . . . فأخذه معه فى رحلته إلى الشام.

وكان فى الطريق تنتشر صوامع الرهبان الذين كانوا يعرفون صفة نبى آخر الزمان فقد قرءوا صفته فى التوراة والإنجيل.

وكان من بين هؤلاء الرهبان رجل اسمه (بحيرا) وكان رجلاً صالحًا يعرف صِفةَ النبى ﷺ .

ونظر بَحيرا إلى القافلة التى قدم فيها أبو طالب ومحمد ﷺ فإذا به يَرى غَمامة (١) فى السماء تُظلل محمدًا ﷺ وتَسير معه أينما سار، وهذه عَلامةٌ من

(١) سحابة.

عَلامات نبـى آخر الزَّمان، وأراد «بَحِيرا» التـأكد من هذا النبى، والنظر فى وجهه، فصنع طَعامًا، ودعا القافلة جميعًا للأكل، فقالوا:

- يا بحيرا كنا نمر عليك فـلم تصنع لنا طعامًا، فلماذا هذه المرة؟!

- **قال:** بل أنتم ضُيوفى، فلتأتوا جَـميعًـا ولا يتخلف منكم أحد.

وجاءوا جمـيعًا إلا رسول الله ﷺ فنظر بحـيرا فلم يجده، فقال: هل جئتم جَميعًا؟

قالوا: نعم، إلا غُلامًا صَغيرًا، اسمه مُحمد جعلناه فى رِحَالِنا.

فقال: إذن، ليذهب أحدكم وَليأتنى به.

وحضر مـحمد ﷺ، وجلس للطعام مع قَـوْمه فلما فَـرَغ القومُ من الطَّعـام، وبقى بحـيـرا ومحـمـد ﷺ وحدهما.

قـال بحيـرا: يا غلامُ أسْـتَحْلِفُك باللاتِ والعُـزَّى، أن

تُجيبنى عـمَّا أسألك عنه قال: لا تَسـألنى باللات والعزى شَيئًا، فوالله إنى لأكْرَهُهُمَا.

فقال: إذن أسألك بالله.

قال: اسأل عَمَّا بَدَا لَك.

فراح بحيرا يسأله عن أُمور نومه، وطَعامه، حتى كشف عنه كَـتِفَـه؛ فـرأى خاتم النُّبـوة على كَـتِفـه، وهو بعض شَعَراتٍ بين كتفيه، ثم انصرف رسول الله ﷺ.

فقال بحيرا لأبى طالب: مَن هذا الغُلام؟ فقال: ابنى.

قـال بحيـرا: لا، ما هو بابنك، ولكن ينبغى أن يكون أبواه قد ماتا.

قال أبو طالب: نعم، مات أبوه وأمـه حُبْلى[1]، وماتت أمه.

فقال بـحيرا: صَدقت، فارجع بابن أخيك إلى بلدك، واحذر عليه اليهود، فلو عَرفُوه ليقتلونه.

---

(١) حُبْلَى: اى حامل.

وعاد أبو طالب إلى مكة.

وقد تأكد أن لابن أخيه شأنًا بين الناس جَميعًا، وما زالت كلمات بَحِيرا فى أُذنه: «احذر عليه اليهود»[1].

الله يعصم نبيه ﷺ من أقذار الجاهلية

وفى ظل الجاهلية التى كان يعيشها أكثر أهل مكة كان النبى ﷺ نشأ نشأة كريمة فلم يشاركهم فى أى شىء يُغضب الله (عز وجل).

* فمن ذلك أن النبى ﷺ لم يسجد لصنم من الأصنام أبدًا.

* ولم يأكل أبدًا من تلك الذبائح التى كانوا يذبحونها لتلك الأصنام.

* ومن ذلك أن الله (عز وجل) حفظه من أن تبدو عورته أو يظهر عُريانًا... ففى يوم من الأيام كان النبى ﷺ يشارك فى نقل الحجارة لبناء الكعبة فقال له عمه

(١) حياة محمد ﷺ للأطفال / أ. حامد أحمد (ص: ٣٨-٤٠).

العباس: اجعل إزارك على رقبتك حتى يقيك من الحجارة. . ففعل ذلك فسقط على الأرض ونظر إلى السماء ثم أفاق وهو يقول: إزارى إزارى فشدَّ عليه إزاره ولم يرَ أحدٌ عورته ﷺ.

* ومن ذلك أنه لم يستمع لصوت المزامير والمعازف.

ففى يوم من الأيام قال النبى ﷺ لفتًى كان معه من قريش بأعلى مكة فى أغنام لأهله يرعاها: «احفظ لى غنمى حتى أذهب إلى مكة فألهو كما يلهو الفتيان..» فقال له: نعم.

يقول النبى ﷺ: «فخرجت ووصلت إلى أقرب دار من دور مكة وسمعت الغناء يخرج من تلك الدار فقلت: ما هذا؟» قالوا: فلان تزوج فلانه.

وفجأة نام النبى ﷺ ولم يوقظه إلا حرُّ الشمس. . . نام النبى ﷺ ولم يستمع إلى تلك المزامير والمعازف. . . فعاد إلى غنمه مرة أخرى وأخبر الفتى الذى كان يرعى له الغنم بما حدث.

ثم قال له فى الليلة الأخرى مثلما قال له فى المرة

الأولى وذهب ليستمع إلى المزامير والمعازف فحدث له ما حدث فى المرة الأولى فلم يعد إلى اللهو مرة أخرى.

يقول النبى ﷺ: «فوالله ما هممت بعدها بسوء مما يعمل أهل الجاهلية حتى أكرمنى الله بنبوته».

حرب الفجار

وكانت الحروب فى أرض الجزيرة لا تهدأ أبدًا.

بل الأعجب من ذلك أن تلك الحروب كانت تقوم لأتفه الأسباب.

* وكان من بين تلك الحروب (حرف الفجار) التى كانت بين قريش وبين قبيلة أخرى تسمى (قَيس عَيلان).

وسُميت تلك الحرب بحرب الفجار لأنها كانت فى الأشهر الحُرم ولأنهم استحلوا فيها الكثير من حُرمات مكة التى كانت مقدمة عند العرب.

* وكادت (قيس عيلان) أن تُهزم هزيمة منكرة لولا أنه

تدخل بعض الناس للصلح بينهم على أن يحصوا عدد القتلى من الفريقين فمن وجد قتلاه أكثر أخذ دية العدد الزائد من القتلى. . فكان لقيس زيادة فى القتلى فأخذوا ديتها من قريش.

* وكان النبى ﷺ فى تلك الحرب قد بلغ العشرين من عمره. . ولم يقاتل فيها بل كان يجمع النبال التى يرميها أعداؤهم ثم يعطيها لأعمامه.

* ولم يقاتل النبى ﷺ لأنها كانت حرب فجار وكانوا كُفارًا ولم يأذن الله لمؤمن أن يقاتل إلا لتكون كلمة الله هى العُليا.

* * *

حلف الفضول

وفى يوم من الأيام حدث فى مكة شىء عجيب يدل على أن الحياة مهما كانت سوداء فلابد من وجود بريق من الأمل.

* فقد جاء رجل إلى مكة من أجل أن يتاجر فى بعض السلع التجارية فاشتراها منه العاص بن وائل السهمى - والد عمرو بن العاص - ووعد الرجل بأن يعطيه الثمن ولكنه نقض العهد ولم يعطه ماله.

فأخذ الرجل يبحث عن أى أحد من سادة قريش ليرد إليه حقه ولكن لم ينصره أحد فصعد الرجل على جبل أبى قُبيس بمكة ونادى على أهل مكة من أجل أن ينصروه على العاص بن وائل فقام الزبير بن عبد المطلب عم النبى ﷺ وجمع قريشًا فى دار رجل اسمه (عبد الله بن جُدعان).

وبعد مناقشات طويلة تحالفت قريش فيما بينها على أن يكونوا يدًا واحدة على كل ظالم حتى يأخذوا منه الحق للمظلوم.

وتحالفوا أيضًا على أن يتقاسموا بعض أموالهم مع الفقراء حتى لا يبقى فى مكة فقير واحد.

* ومن شدة إعجاب النبى ﷺ بحلف الفضول ومبادئه السامية كان لا ينسى هذا الحلف أبدًا. . وظل يذكره بعد البعثة النبوية ويقول: «**لقد شهدتُ فى دار عبد الله بن جُدْعان حلفًا لو دُعيت إليه فى الإسلام لأجبت، تحالفُوا أن يَرُدوا الفُضول على أهلها، وألا يَعُدُّ(١) ظالم مظلومًا**».

* * *

(١) يظلم.

مكانة النبى ﷺ بين قومه

لقد كان النبى ﷺ فى خير قبيلة وأشرف نسب.. وهكذا الأنبياء يكونون أشرف الناس نسبًا وأكمل الناس خَلقًا وخُلقًا.

لذا سأل هرقل أبا سفيان بن حرب عن نسب النبى ﷺ فقال: «كيف نسبه فيكم».

فقال أبو سفيان: هو فينا ذو نسب.

ثم قال: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تُبعث فى نسب قومها» (١).

* وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «إن الله - عزَّ وجلَّ - اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بنى إسماعيل كنانة، واصطفى من بنى كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم» (٢).

---

(١) أخرجه البخارى (١/ ٤٢) بدء الوحى.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٢٧٦) كتاب الفضائل.

قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس مَن أنا؟ قالوا: أنت رسول الله ﷺ قال: أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب إلا أن الله - عزَّ وجلَّ - خلق خلقه، فجعلنى من خير خلقه، ثم فرقهم فرقتين، فجعلنى من خير الفرقتين، ثم جعلهم قبائل، فجعلنى من خيرهم قبيلة، ثم جعلهم بيوتًا فجعلنى من خيرهم بيتًا، وأنا خيركم بيتًا، وخيركم نفسًا»(١).

* بل لقد كان الحجر يعرف قدر النبى ﷺ فكان يسلم عليه قبل البعثة.

فعن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى لأعرف حجرًا بمكة كان يُسلم علىَّ قبل أن أُبعث إنى لأعرفه الآن» (٢).

* * *

(١) رواه أحمد والترمذى وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (١٤٧٢).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٢٧٧) كتاب الفضائل.

زواج النبى ﷺ من خديجة رضي الله عنها

كان النبى ﷺ قد عُرف فى مكة بأنه الصادق الأمين.. حتى أنه كان كثير من سادة قريش يضعون أموالهم وأماناتهم عند النبى ﷺ ومنهم من كان يعطيه ماله ليتاجر به ويعطيه على ذلك جزءاً من الربح... فكان النبى ﷺ يأخذ الربح ليساعد به عمه أبا طالب.

* وكان هناك فى مكة امرأة عاقلة اسمها خديجة بنت خويلد وكانت امرأة غنية تتاجر بمالها... فقد كانت تزوجت قبل ذلك برجلٍ غنى فمات فترك لها مالاً كثيراً ثم تزوجت برجلٍ آخر فمات وترك لها مالاً وفيراً... فكانت تستأجر الرجال للعمل فى تجارتها.

ومن المعلوم أنهم كانوا يعيشون فى فترة جاهلية شديدة... فمن المؤكد أنها قد تعرضت للسرقة أكثر من مرة.

* **فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها:** من صدق

حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج فى مالٍ لها إلى الشام تاجرًا، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار، مع غلام لها يقال لهُ ميسرة، فقبله رسول الله ﷺ منها، وخرج فى مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام.

فنزل رسول الله ﷺ فى ظل شجرة قريبًا من صومعة راهب من الرهبان، فاطلع الراهب إلى ميسرة، فقال له: من هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة؟ قال له ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم، فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى.

ثم باع رسول الله ﷺ سلعته التى خرج بها، واشترى ما أراد أن يشترى، ثم أقبل قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة، فكان ميسرة إذا اشتد الحرُّ يرى ملكين يظلانه من الشمس، وهو يسير على بعيره، فلما قدم مكة على خديجة بمالها باعت البضاعة التى جاء بها من الشام فأصبح ربحها مضاعفًا... ولم يحدث فى أى رحلة

تجارية أن ربحت خديجة مثل هذا الربح فسألت غلامها ميسره فأخذ يحدثها عن أخلاق النبى ﷺ وصدقه وأمانته.

بل أخذ يحدثها عن قول الراهب وعما كان يرى من إظلال الملكين إياه.

* فذهبت خديجة إلى ابن عمها (ورقة بن نوفل) وكان نصرانيًا قد قرأ كتب أهل الكتاب وعرف صفات نبى آخر الزمان.. فبشرها بأن هذه هى صفاته وأنه سيكون نبى آخر الزمان.

* اجتمعت الدلائل عند خديجة أن محمدًا سيكون نبى آخر الزمان فباتت ترجو أن يكون زوجًا لها... ولكن كيف ذلك وهو فى الخامسة والعشرين من عمره وهى فى الأربعين من عمرها.

ومع ذلك لم تيأس لأنها كانت غنية وجميلة وكان كثير من الرجال يرغبون فى الزواج منها ولكنها كانت ترفض لأنها كانت ترى حرصهم على مالها.. وفى نفس

الوقت لم تجد الرجل المناسب الذى ترضى أخلاقه ورجولته.

لكنها لما رأت محمداً ﷺ عرفت أنها لن تجد مثله أبداً.

* وجلست فى حيرة تفكر كيف تفوز بزواجها من محمد ﷺ.

وفى غمرة الحيرة والاضطراب تدخل عليها صديقتها نفيسة بنت منبه، وتجلس معها تبادلها أطراف الحديث حتى استطاعت أن تكشف السر الكامن المرتسم على مُحياها وفى نبرات حديثها.

وهدأت نفيسة من روع خديجة وطمأنت خواطرها، وذكرت بأنها ذات الحسب والنسب والمال والجمال، واستدلت على صدق قولها بكثرة الطالبين لها من أشراف الرجال.

وما إن خرجت نفيسة من عند خديجة حتى انطلقت إلى النبى ﷺ وكلمته أن يتزوج الطاهرة خديجة،

وقالت: يا محمد ما يمنعك أن تتزوج فقال - عليه الصلاة والسلام - : «ما بيدى ما أتزوج به».

قالت: فإن كُفيت ودُعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة فهل تجيب؟

فردَّ متسائلاً: ومن؟

قالت على الفور: خديجة بنت خويلد.

فقال: إن وافقت فقد قبلت.

وانطلقت نفيسة لتزف البشرى إلى خديجة، وأخبر - عليه الصلاة والسلام - أعمامه برغبته فى الزواج من خديجة، فذهب أبو طالب وحمزة وغيرهما إلى عم خديجة عمرو ابن أسد، وخطبوا إليه ابنة أخيه، وساقوا إليه الصداق.

فى ذلك المجلس اللطيف، قام أبو طالب يخطب.

ولما تم العقد نُحرت الذبائح، ووُزعت على الفقراء، وفُتحت دار خديجة للأهل والأقارب.

* وانتشر الخبر فى مكة كلها أن الصادق الأمين قد

تزوج خديجة.

* وعاش النبى ﷺ مع خديجة أجمل أيام حياته ورزقه الله منها الأولاد فقد أنجبت له: القاسم وعبد الله ورقية وأم كلثوم وزينب وفاطمة ولكن القاسم مات ومات عبد الله فاحتسبه النبى ﷺ ورضى بقضاء ربه ولم يعترض.

* وبهذه المناسبة.. تعالوا لنتعرف سريعًا على أزواج النبى ﷺ وأولاده.

❊ ❊ ❊

أزواج النبى ﷺ (أمهات المؤمنين)

أولاهن خديجة بنت خُويلد القرشية الأسدية، تزوجها قبل النبوة، ولها أربعون سنة، ولم يتزوج عليها حتى ماتت، وأولاده كلهم منها إلا إبراهيم، وهى التى آزرته على النبوة، وجاهدت معه، وواسته بنفسها ومالها، وأرسل الله إليها السلام مع جبريل، وهذه خاصة لا تُعرف لامرأة سواها، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين.

ثم تزوج بعد موتها سودة بنت زمعة القرشية، وهى التى وهبت يومها لعائشة.

ثم تزوج بعدها أمَّ عبد الله عائشة الصدِّيقة بنت الصدِّيق، المُبرأة من فوق سبع سماوات، حبيبة رسول الله ﷺ عائشة بنت أبى بكر الصديق، وعرضها عليه الملَك قبل نكاحها فى قطعة من حرير وقال: «هذه زوجتك»[1] . . . تزوج بها فى شوال وعمرها ست

(١) أخرجه البخارى (١٢/ ٣٥٢) فى التعبير، ومسلم (٢٤٣٨).

سنين، وبَنَى بها فى شوال فى السنة الأولى من الهجرة وعمرها تسع سنين، ولم يتزوج بكرًا غيرها، وما نزل عليه الوحى فى لحاف امرأة غيرها، وكانت أحب الخلق إليه.

ثم تزوج حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما... وذكر أبو داود أنه طلقها، ثم راجعها (١).

ثم تزوج زينب بنت خزيمة بن الحارث القيسية، من بنى هلال بن عامر، وتوفيت عنده بعد ضمِّه لها بشهرين.

ثم تزوج أم سلمة هند بنت أبى أمية القرشية المخزومية، واسم أبى أمية حذيفة بن المغيرة، وهى آخر نسائه موتًا.

ثم تزوج زينب بنت جحش من بنى أسد بن خزيمة وهى ابنة عمته أميمة، وفيها نزل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾(٢) وبذلك كانت تفتخر على نساء

(١) رواه أبو داود وابن ماجه بإسناد صحيح.
(٢) سورة الاحزاب: الآية: (٣٧).

النبى ﷺ، وتقول: زوَّجكن أهاليكن، وزوجنى الله من فوق سبع سماوات[1].

ومن خواصها أن الله سبحانه وتعالى كان هو وليها الذى زوَّجها لرسوله من فوق سماواته، وتوفيت فى أول خلافة عمر بن الخطاب. وكانت أولاً عند زيد بن حارثة، وكان رسول الله ﷺ تبناه فلما طلقها زيد، زوَّجه الله تعالى إياها لتتأسى به أمته فى نكاح أزواج من تبنوه - وبخاصة وأن الإسلام أبطل التبنى بعد ذلك -.

وتزوج ﷺ جويرية بنت الحارث وكانت من سبايا بنى المصطلق، فجاءته تستعين به على كتابتها، فأدى عنها كتابتها وتزوجها.

ثم تزوج أم حبيبة، واسمها رملة بنت أبى سفيان صخر بن حرب القرشية الأموية وقيل: اسمها هند، تزوجها وهى ببلاد الحبشة مهاجرة، وأصدقها عنه النجاشى أربعمائة دينار، وسيقت إليه من هناك، وماتت فى أيام

(١) أخرجه البخارى (١٣/ ٣٤٧) التوحيد.

أخيها معاوية.

وتزوج ﷺ صفية بنت حيُى بن أخطب سيد بنى النضير من ولد هارون بن عمران أخى موسى، فهى ابنة نبى، وزوجة نبى، وكانت من أجمل نساء العالمين، وكانت قد صارت له من السبى أمة فأعتقها، وجعل عتقها صداقها، ثم تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية، وهى آخر من تزوج بها، تزوجها بمكة فى عمرة القضاء بعد أن حل منها - أى بعد أن فكَّ إحرامه -.

* * *

أولاد النبى ﷺ

* قال النووى رحمه الله :

كان له ﷺ : ثلاثة بنين : القاسم وبه كان يُكنى ، ولُد قبل النبوة ، وتوفى وهو ابن سنتين ، وعبد الله وسُمى الطيب والطاهر ، لأنه وُلد بعد النبوة والثالث : إبراهيم ولد بالمدينة سنة ثمان ، ومات بها سنة عشر ، وهو ابن سبعة عشر شهراً أو ثمانية عشر .

* وكان له أربع بنات:

زينت تزوجها أبو العاص بن الربيع وهو ابن خالتها هالة بنت خويلد .

وفاطمة تزوجها على بن أبى طالب رضي الله عنه .

ورقية وأم كلثوم تزوجهما عثمان بن عفان ، تزوج رقية ، ثم أم كلثوم ، وتوفيتا عنده ، ولهذا سُمى ذا النورين .

وكلهم من خديجة إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية ، وكلهم توفوا قبله إلا فاطمة ، فإنها عاشت بعده ستة أشهر .

النبى ﷺ يشارك فى بناء الكعبة

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾[1].

وعن أبى ذر قال: سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع فى الأرض قال: «المسجد الحرام. قلت ثم أى؟ قال: المسجد الأقصى. قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون عامًا، ثم الأرض لك مسجد فحيثما أدركت الصلاة فصلِّ، فإن الفضل فيه»[2].

* وقد اختلف أهل العلم فى أول من بنى الكعبة فمنهم من قال: أول من بناها الملائكة. ومنهم من قال: أول من بناها آدم عليه السلام. ومنهم من قال: أول من بناها إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام).

والراجح أن الكعبة كانت قبل إبراهيم وإسماعيل

(١) سورة آل عمران: الآية (٩٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٦٦) كتاب أحاديث الأنبياء، واللفظ له، ومسلم (٥٢٠) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

ولكنها هُدمت وبقيت القواعد فكان الذى رفع تلك القواعد إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1].

* وكانت الكعبة - قبل مبعث النبى ﷺ - قد أوشكت على الانهيار... قيل: بحريق أصابها وقيل: بسيلٍ جارف وكان ذلك قبل بعثة النبى ﷺ بخمس سنوات على الراجح.

فاضطرت قريش إلى تجديد بنائها حرصًا على مكانتها، واتفقوا على أن لا يُدخلوا فى بنائها إلا طيبًا، فلا يدخلوا فيها مهر بَغِىٍّ، ولا بيع ربًا، ولا مظلمة أحد من الناس، وكانوا يهابون هدمها، فابتدأ بها الوليد بن المغيرة المخزومى وتبعه الناس لما رأوا أنه لم يصبه شىء، ولم يزالوا فى الهدم حتى وصلوا إلى قواعد إبراهيم، ثم أرادوا الأخذ فى البناء، فجزؤوا الكعبة، وخصصوا لكل قبيلة جزءًا

(١) سورة البقرة: الآية: (١٢٧).

منها، فجمعت كل قبيلة حجارة على حده، وأخذوا يبنونها، وتولى البناء بنَّاء رومى اسمه باقوم، ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود، اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه فى مكانه، واستمر النزاع أربع ليال أو خمسًا، واشتد حتى كاد يتحول إلى حرب ضروس فى أرض الحرم، إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومى عرض عليهم أن يُحكِّموا فيما شجر بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد فارتضوه، وشاء الله أن يكون ذلك رسول الله ﷺ فلما رأوه هتفوا: هذا الأمين، رضيناه، هذا محمد، فلما انتهى إليهم، وأخبروه الخبر طلب رداءً، فوضع الحجر وسطه، وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعًا بأطراف الرداء، وأمرهم أن يرفعوه، حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذه بيده، فوضعه فى مكانه[1].

* * *

(١) الرحيق المختوم (ص:٥٩).

شمس النبوة تشرق على أرض الجزيرة

وفى تلك الفترة التى كانت قبل البعثة كان النبى ﷺ يعبد ربه على دين إبراهيم (عليه السلام).

ولما اقترب من سن الأربعين حُبِّب إليه الخلاء فكان يذهب إلى غار حراء فى جبال مكة وكان يمكث شهر رمضان فى ذلك الغار يتعبد ويتفكر فى بديع خلق الله (جل وعلا).

* وفى هذا الوقت حدثت أشياء عجيبة... فقد كانت الشياطين تتجسس وتسمع أخبار السماء.. ولكنها الآن لا تستطيع ذلك فإن النجوم والشُّهُب تطارد كل شيطان يحاول أن يقترب ليعرف أخبار السماء فتحرقه وتقتله.

* وبدأ النبى ﷺ يحكى لخديجة أنه يرى ضوءاً ويسمع صوتًا فكانت خديجة تسأل ابن عمها ورقة بن

نوفل فيقول لها: إن يكن صادقًا فإن هذا الوحى الذى كان يأتى موسى (عليه السلام).. فإن بُعث وأنا حى سأنصره وأؤمن به.

* وكان النبى ﷺ فى تلك الفترة يرى الرؤيا الصادقة فى النوم.

وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

فكان يتزود بالطعام والشراب ويذهب إلى الغار ليتعبد ثم يعود بعد فترة ليتزود مرة أخرى.

* وبدأت أيام شهر رمضان المباركة تُطِلُ على أهل مكة وخرج النبى ﷺ كعادته إلى غار حراء ليتعبد لربه (جل وعلا) ويتأمل فى بديع خلق الله.

وبينما كان النبى ﷺ فى تلك الحالة الإيمانية الفريدة وإذا به فجأة يرى مخلوقًا لم ير مثله قبل ذلك أبدًا.

وبدأ يقترب من النبى شيئًا فشيئًا حتى جذبه بشدة وضمَّه بقوة وقال له: اقرأ.

فقال له النبى ﷺ: «ما أنا بقارئ». . . فقد كان النبى ﷺ أُميًّا لا يقرأ ولا يكتب.

فجذبه الملَك وضمه بقوة مرة أخرى وقال له: اقرأ.

فقال النبى ﷺ: «ما أنا بقارئ».

ثم جذبه الملَك للمرة الثالثة وضمه بقوة حتى تعب النبى ﷺ من ذلك تعبًا شديدًا فقال له الملك: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

ثم تركه الملَك وعاد إلى السماء مرة أخرى بعد أن ترك النبى ﷺ خائفًا مرعوبًا قد تصبب العرق على جبينه وجسده.

* فأسرع النبى ﷺ عائدًا إلى خديجة وهو يقول: «زمِّلونى زمِّلونى»[2].

* فقامت خديجة لتغطية وتُهدئ من روعه.

---

(١) سورة العلق: الآيات: (١-٥).

(٢) أى: غطونى.

وبدأت خديجة تسأله عما حدث.. فأخبرها النبى ﷺ بما حدث ثم قال لها:

لقد خشيت على نفسى.

فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ[1]، وتكسب المعدوم[2]، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق[3]، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى (ابن عم خديجة)، وكان امرأً تنصَّر فى الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربى، فيكتب الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمى، فقالت له خديجة: يا ابن عمى اسمع من ابن أخيك.

فقال له ورقة: يا ابن أخى ما ترى؟ فأخبره رسول الله

(١) تحمل الكل: تنفق على الضعيف واليتيم والعيال، والكل: أصله الثقل والإعياء.

(٢) تكسب المعدوم: تعطى الناس ما لا يجدونه عند غيرك من نفائس الفوائد ومكارم الأخلاق.

(٣) تعين على نوائب الحق: أى: إنك لا يصيبك مكروه لما جعل الله فيك من مكارم الأخلاق وكرم الشمائل.

ﷺ خبر ما رأى: فقال له ورقة:

هذا الناموس - أى جبريل أو الوحى - الذى نزّل الله على موسى، ياليتنى أكون شابًّا قويًّا عندما يُخرجك قومك.

فتعجب النبى ﷺ وقال: «وهل سيُخرجنى قومى؟».

فقال له ورقة: ما جاء رجل بمثل ما جئت به إلا عاداه قومه وأخرجوه ولو كنت قويًّا فى ذلك الوقت لأنصرنَّك نصرًا قويًّا (١).

* وعاد النبى ﷺ إلى بيته يفكر فيما قاله ورقة ابن نوفل فعلم أن الأيام تُخبئ له أحداثًا عظيمة.. ولكنه كان على يقين وثقة أن الله لا يخذله.

* * *

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤) كتاب بدء الوحى، ومسلم (١٦٠) كتاب الإيمان.

وفاة ورقة بن نوفل

وبعد ذلك بفترة يسيرة مات ورقة بن نوفل الذى كان قد عاهد النبى ﷺ على أنه إن كان حيًّا فسوف ينصره ويؤمن به.

النبى ﷺ يرى جنة أو جنتين لورقة بن نوفل

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله: «لا تسبوا ورقة فإنى رأيت له جنة أو جنتين»[1].

* * *

(١) صحيح: رواه الحاكم (٢/٦٦٦ ، رقم ٤٢١١)، وابن عساكر (٦٣/٢٤)، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٧٣٢٠).

حزن النبى ﷺ لفتور الوحى

عـاد النبى ﷺ بعد ذلك إلـى غار حـراء لعله يرى الملك الذى نزل عليـه قبل ذلك وقال لـه: اقرأ... لكن الملك لم يأتِ إلـيـه مـرة أخـرى... ويمـر اليـوم وراء اليوم.. والنبى ﷺ ينتظر والملك لا يأتى.

فـحزن النـبى ﷺ على فتـور الوحى وعـدم نزول جبريل وخشى ألا ينزل عليه مرة أخرى.

وبينمـا هو عائد من الغـار وإذا به يرى جبريل (عـليه السلام) جالسًا على كُرسيه بين السماء والأرض فخاف منه النبى ﷺ وامتلأ قلبه رُعـبًا من هول المنظر... وأسرع بالعودة إلى خديجة وهو يقول: زملونى زملونى.. فجاءه جبريل مرة أخرى وهو يقرأ عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[1].

* ففزع النبى ﷺ وقام من نومه فقالت له خديجة:

(١) سورة المدثر: الآيات: (١-٥).

نم يا محمد واسترح.

فقال لها: لقد مضى عهد النوم يا خديجة.

الدعوة السرية

لما نزل على النبى ﷺ قول الله (جل وعلا): ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾[1].

علم النبى ﷺ أنه تحمَّل مهمة شاقة ومسئولية كبيرة: وهى أنه لابد أن يقوم ليدعو الناس جميعًا إلى عبادة الله (جل وعلا) وإلى ترك عبادة الأصنام.

* وبدأت الدعوة إلى الإسلام سرًّا.

وكان من الطبيعى أن يعرض الرسول ﷺ الإسلام أولاً على ألصق الناس به وآل بيته، وأصدقائه، فدعاهم إلى الإسلام، ودعا إليه كل من توسم فيه خيرًا ممن يعرفهم ويعرفونه.

(١) سورة المدثر: الآيتان: (١-٢).

وفى مقدمتهم زوجة النبى ﷺ أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، ومولاه زيد بن حارثة، وابن عمه على بن أبى طالب - وكان صبيًّا يعيش فى كفالة الرسول ﷺ[1].

* ودعا صديقه الذى هو موضع ثقته وأمين سره ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾[2].

أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فلم يتردد وكان أول داعية فى الإسلام، وكان ببركة إسلامه ودعوته ثلة مباركة دخلت فى الدين وكانت من السابقين الأولين وكان لها فى الإسلام أعظم بذل وبلاء، فرضى الله عنهم أجمعين. . . منهم عثمان بن عفان رضي الله عنه ذو النورين، والزبير بن العوام وهو حوارى رسول الله ﷺ وابن عمته صفية بنت عبد المطلب، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص خال المصطفى ﷺ، وطلحة بن عبيد الله، وكل هؤلاء الذين دخلوا الإسلام على يد أبى بكر من العشرة المبشرين

(١) الرحيق المختوم (ص: ٧٢).
(٢) سورة التوبة: الآية: (٤٠).

رضى الله عنهم أجمعين[1].

* فكان أول من أسلم من النساء خديجة رضي الله عنها.

وأول من أسلم من الرجال أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه.

وأول من أسلم من الصبيان على بن أبى طالب رضي الله عنه.

وأول من أسلم من الموالى زيد بن حارثة رضي الله عنه.

* وبدأ النبى ﷺ يتوسع فى دعوته شيئًا فشيئًا حتى لا تعلم قريش بذلك فتبدأ فى إيذاء المؤمنين.

* ولما زاد عدد الذين أسلموا على الثلاثين اختار لهم الرسول ﷺ دار أحدهم (وهو الأرقم بن أبى الأرقم) ليلتقى بهم فى تلك الدار فيعلمهم ويرشدهم.

* واستمرت هذه المرحلة السرية قرابة ثلاث سنوات.

ثم نزل الوحى يكلف النبى ﷺ بأن يجهر بدعوته.

* * *

(١) وقفات تربوية / د. أحمد فريد (ص: ٦٧).

الجهر بالدعوة

لقد جاء الأمر من الله (جل وعلا): ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾(١) . . . فقام النبى ﷺ ليصدع بهذه الدعوة المباركة وأصبحت المواجهة حتمية بين المؤمنين والكافرين.

وأنذر عشيرتك الأقربين

* عن ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾(٢). خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف: «يا صباحاه» (٣)، فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: «أرأيتم إن أخبرتكم أنَّ خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقيّ؟».

(١) سورة الحجر: الآية: (٩٤).

(٢) سورة الشعراء: الآية: (٢١٤).

(٣) يا صباحاه. كلمة ينادى بها للاجتماع لوقوع أمر عظيم.

قالوا: ما جَرَّبنا عليك كذبًا.

قال: «فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد».

قال أبو لهب: تبًّا لك ما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام، فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾(١)(٢).

* **وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال:** قام رسول الله ﷺ حين أُنزل عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾(٣).

قال: «يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم لا أُغنى عنكم من الله شيئًا، يا بنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئًا يا عباس ابن عبد المطلب، لا أغنى عنك من الله شيئًا، يا صفية عمة رسول الله، لا أغنى عنك من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد، سلينى ما شئت من مالى، لا أغنى عنك من الله شيئًا» (٤).

❊ ❊ ❊

(١) سورة المسد: الآية: (١).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٩٧١) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٠٨) كتاب الإيمان.

(٣) سورة الشعراء: الآية: (٢١٤).

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٤٧٧١) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٠٦) كتاب الإيمان.

وفد قريش إلى أبى طالب

بدأ النبى ﷺ دعوته العلنيـة... وأخذ يعلم الناس أن تلك الأصنام التى يـعبـدونهـا لا تنفع ولا تضـر... وأخذ ينتظر قـدوم العرب إلى موسم الحج ليـدعوهم إلى الإسلام ويقول لهم: «قولوا لا إله إلا الله تفحلوا».

* وهنا بدأ المشركون يشعرون بخطر دعوة النبى ﷺ التى تُحرم عليـهم تجارة الأصنام وعبادتهـا.. وتُسوِّى بين السادة والعبيد وبين الغنـى والفقير.. فالناس فى ظل هذا الدين سـواء لا فضل لأحدٍ عـلى أحد إلا بالتـقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(١) فلا فضل لأحد على أحد بالمال أو الجاه أو السلطان أو القوة.

* وهنا قرر المشركون أن يواجهوا النبى ﷺ وأصحابه.

فذهبوا أولاً إلى عمه أبى طالب وقالوا له:

يا أبا طالب، إن ابن أخـيك قـد سب آلهـتنا، وعاب ديننا، وسفّـه أحـلامنا، وضلل آباءنا، فإمـا أن تكفه عنا،

(١) سورة الحجرات: الآية: (١٣).

وإما أن تُخلى بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقًا، وردَّهم ردًّا جميلا فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه يُظهر دين الله، فذهب الوفد مرة أخرى إلى أبى طالب، فقالوا له: يا أبا طالب: إن لك سنًّا وشرفًا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك عن ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك فى ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين. . ثم انصرفوا عنه، فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفسًا بتسليم رسول الله ﷺ لهم ولا خذلانه، فدعا أبو طالب رسول الله ﷺ وقال له: يا ابن أخى: إن قومك قد جاؤونى فقالوا لى كذا وكذا فأبقِ علىَّ وعلى نفسك، ولا تُحملنى من الأمر ما لا أطيق، فقال عليه الصلاة والسلام: «**يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله، أو أهلك فيه ما تركته**»، ثم استعبر رسول الله ﷺ، فبكى فلما ولى ناداه أبوطالب،

فقال: أقبل يا ابن أخى، فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت فوالله لا أُسلمك لشىء أبدًا»[1].

موقف جليل لأبى طالب وقومه

قال ابن إسحاق: ثم إن قريشًا حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ وإسلامه، وإجماعه لفراقهم فى ذلك وعداوتهم، مَشَوا إليه بعُمارة بن الوليد ابن المُغيرة، فقالوا له: يا أبا طالب، هذا عُمارة بن الوليد، أشد فتًى فى قريش وأجملهم، فخذه فلك عَقله ونصرُه، واتخذه ولدًا فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك، وفَرَّق جماعة قومك، وسفَّه أحلامهم، فنقتله، فإنما هو رجل برجل؛ فقال: والله لبئس ما تكلفوننى أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابنى تقتلونه؟ هذا والله ما لا يكون أبدًا.

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢٩٩).

النبى ﷺ يستمر فى دعوته

* قام النبى ﷺ يدعو الناس إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأوثان. . . وكانت زوجته خديجة تعينه وتثبته وتخفف عنه الآلام والأحزان وتساعده بمالها.

وكان عمه أبو طالب يؤازره وينصره ويحميه رغم أنه كان مشركًا ولم يؤمن. . لكنه كان يحب الرسول الله ﷺ حبًّا جمًّا.

* وأوحى الله إلى نبيه ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (١).

فقام النبى ﷺ يبذل أقصى جهده فى الدعوة إلى الله وهو يعلم أن الله قد تعهد بحفظه من كيد المشركين وإيذائهم. . . فظل فى دعوته هذه حتى آخر لحظة فى حياته ﷺ.

---

(١) سورة المائدة: الآية: (٦٧).

إيذاء المشركين لأصحاب سيد المرسلين ﷺ

وهنا انفجرت مكة بمشاعر الغضب وبدأت تُسلط على أصحاب الرسول ﷺ أشد أنواع العذاب فاستباحوا دماءهم وأموالهم وأعراضهم.

ما حدث لأبى بكر رضي الله عنه

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «لقد ضربوا رسول الله ﷺ مرة حتى غُشى عليه، فقام أبو بكر رضي الله عنه فجعل ينادى ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله! فقالوا: من هذا؟ فقالوا: أبو بكر المجنون فتركوه، وأقبلوا على أبى بكر»[1].

(١) رواه أبو يعلى (٣٦٩١)، والحاكم (٣/ ٦٧)، وقال الهيثمى فى المجمع (٥/ ٤٣١): رواه أبو يعلى والبزار وزاد: فتركوه وأقبلوا على أبى بكر. ورجاله رجال الصحيح.

ونال أبا بكر رضي الله عنه نصيبُه من الأذى، حتى فكر فى الهجرة إلى الحبشة فرارًا بدينه[1].

وقام أبو بكر خطيبًا فى المسجد الحرام ذات يوم فضربه المشركون ضربًا شديدًا، وممن ضربه عتبة بن ربيعة حيث جعل يضربه على وجهه بنعلين مخصوفتين حتى ما يُعرف وجهه من أنفه. وجاء رجال من قبيلة أبى بكر فصرفوا المشركين عن أبى بكر، وحملوه فى ثوب إلى منزله، ولا يشكون فى موته، وأقسموا لئن مات أبو بكر ليُقتلن عتبة بن ربيعة[2].

ما حدث لعثمان رضي الله عنه

وكان عم عثمان بن عفان يلفه فى حصير من أوراق النخيل، ثم يدخنه من تحته.

وروى أنه عندما أسلم أخذه عمه الحكم بن أبى

(١) انظر الحديث بتمامه من رواية البخارى، الصحيح (فتح البارى ١٠/ ٤٣، ٤٤ / ح ٢٢٩٧).

(٢) ابن كثير فى البداية (٣/ ٣٣، ٣٤).

العاص بن أميـة فأوثقه رباطًا، وأقسم ألا يحله إلا إذا ترك الإسلام، فأقسم عثمان على عدم تركه الإسلام، فلما رأى عمه صلابته فى دينه تركه.

ما حدث لمصعب بن عمير رضي الله عنه

ولما علمت أم مـصعب بن عـمـير بإسـلامه أجـاعتـه وأخرجته من بيتها، وكان من أنعم الناس عيشًا، فحبسته أمه وحرمته من مالها فاستطاع أن يهرب منها وعاش زاهدًا حتى استشهد يوم أحد.

ما حدث لأبى ذر رضي الله عنه

وعندما سـمع أبو ذر الغفارى بخبـر النبى ﷺ جاء ودخل مكة، وأخذ يسأل عن الرسول ﷺ، فضربه أهل مكة حتى غُـشى عليه، وكاد أن يموت، فخلَّصـه العباس رضي الله عنه منهم.

* * *

تعذيب الموالى

بعد أن بذلت قريش كل ما فى وسعها من قوة وحيلة فى إطفاء أنوار الدعوة المحمدية، وباءت بخيبة مريرة حوّلت ذلك إلى نقمة على المستضعفين من المؤمنين كبلال وعمّار ووالده ياسر وأمه سُمَيَّة، وصهيب الرومى، وخبَّاب بن الأرت وابن فهيرة، وأبى فكيه، ومن النساء زِنّيرة، والنهدية، وأم عُبيس.

بلال يردد نشيده الخالد: أحدٌ أحدٌ

* وكان بلالٌ مولى لأمية بن خلف فكان أمية يُخرجه إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتُوضع على صدره، ثم يقول له: [لا والله] لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعُزى؛ فيقول وهو فى ذلك البلاء: أحدٌ أحدٌ.

* * *

اصبروا آل ياسر فإن موعدكم الجنة

وأما عمّار وأمه ووالده ياسر فقد كانوا يُخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء يعذبونهم بحرّها، فمرَّ بهم النبى ﷺ وهم يُعذَّبون، فقال: «صَبْرًا آل يَاسر فإن موعدكُم الجنة»(١) فمات ياسر تحت العذاب رحمه الله رحمة واسعة.

وأما سمية فقد أغلظت القول لأبى جهل فطعنها بحربته فى موطن عفتها فماتت شهيدة، فكانت أول شهيدة فى الإسلام.

أخذ المشركون عَمَّارًا، فلم يتركوه حتى نال من رسول الله ﷺ. وذكر آلهتهم بخير، فلما أتى النبى ﷺ قال: «ما وراءك؟».

قال: شرٌّ يا رسول الله. والله ما تُركتُ حتى نلتُ

(١) حسن صحيح: رواه الطبرانى (٢٤/٣٠٣، رقم ٧٦٩)، وحسنه العلامة الألبانى رحمه الله فى تخريجه لكتاب فقه السيرة (ص١٠٣)، وقال: حسن صحيح.

منك، وذكرتُ آلهتهم بخير، قال: «فكيف تجدُ قلبك»؟

قال: مطمئنٌ بالإيمان.

قال: «فإن عادوا فَعُد»[1].

فنزل قول الله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[2].

وكان حظ (خبّاب) من العذاب كبيراً

ولقد كان حظ «خبّاب» من العذاب كبيرًا، ولكن صبره وتضحيته من أجل الحق كانت أكبر وأعظم بكثير.

لقد كانوا يقاومون إيمانه بالعذاب، وكان هو يقاوم العذاب بالصبر والتضحية.

وكان رضي الله عنه مولى لأم أنمار بنت سباع الخزاعية، فكان المشركون يذيقونه أنواعًا من التنكيل، يأخذون بشعر رأسه فيجذبونه جذبًا، ويلوون عنقه تلوية عنيفة، وأضجعوه مرات عديدة على فحام ملتهبة، ثم وضعوا عليه حجرًا،

(١) رواه الحاكم (٢/ ٣٥٧) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) سورة النحل: الآية: (١٠٦).

حتى لا يستطيع أن يقوم[1].

تسليط الأذى على النبى ﷺ

ولم يكن العذاب خاصًّا بأصحاب الرسول ﷺ وحدهم بل إن المشركين آذوا الرسول ﷺ كثيرًا.

* فتعالوا بنا لنرى صورًا من إيذاء المشركين لسيد المرسلين ﷺ.

إيذاء أبى جهل للنبى ﷺ

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: «قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه[2] بين أظهركم؟ - أى: هل يصلى ويسجد - قالوا: نعم.

فقال: واللات والعزى! لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته أو لأعفرنَّ وجهه فى التراب. قال فأتى

(١) رحمة للعالمين (١/ ٥٧).

(٢) يعفر وجهه: أى يسجد ويلصق وجهه بالعفر وهو التراب.

رسول الله ﷺ وهو يصلى، من أجل أن يطأ على رقبته، قال: فوجدوه فجأة يرجع إلى الوراء ويتقى بيديه. قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بينى وبينه لخندقًا من نار وهولاً وأجنحة.

فقال رسول الله ﷺ: **«لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً»**(١).

إيذاء أبى لهب للنبى ﷺ

* عن ربيعة بن عباد الديلى قال:

«رأيت رسول الله ﷺ بعينى بسوق ذى المجاز يقول: يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، إلا أن وراءه رجلاً أحولاً وضىء الوجه(٢) ذو غديرتين يقول: إنه صابئ(٣) كاذب، فقلت: من هذا؟ قالوا:

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٩٧) كتاب صفة القيامة والجنة والنار.

(٢) وضىء الوجه: حسن الوجه.

(٣) صابىء: خرج من دين إلى دين آخر.

محمد بن عبد الله، وهو يذكر النبوة. قلت: ومن هذا الذى يكذّبه؟، قالوا: عمه أبو لهب».

* وكان أبو لهب قد زوَّج ولديه عتبة وعتيبة ببنتى رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم قبل البعثة فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما بعنف وشدة، حتى طلقاهما»[1].

ولما مات عبد الله، الابن الثانى لرسول الله ﷺ استبشر أبو لهب، وهرول إلى رفقائه يبشرهم بأن محمدًا صار أبتر[2]. فنزل قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾[3].

وامرأته حمالة الحطب

وكانت امرأة أبى لهب - أم جميل، أروى بنت حرب ابن أمية أخت أبى سفيان - لا تقلّ عن زوجها فى عداوة النبى ﷺ فقد كانت تحمل الشوك وتضعه فى طريق

(١) تفهيم القرآن (٦/ ٥٢٢).
(٢) تفهيم القرآن (٦/ ٤٩٠).
(٣) سورة الكوثر: الآية: (٣).

النبى ﷺ وعلى بابه ليلاً، وكانت امرأة سليطة تبسط فيه لسانها، وتطيل عليه الافتراء والدَّس، وتثير حربًا شعواء على النبى ﷺ ولذلك وصفها القرآن بحمالة الحطب، ولما سمعت ما نزل فيها وفى زوجها من القرآن أتت رسول الله ﷺ وهو جالس فى المسجد عند الكعبة، ومعه أبوبكر الصديق، وفى يدها حجارة، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر أين صاحبك؟ قد بلغنى أنه يهجونى، والله لو وجدته لضربت بهذا الحجر فاه، أما والله إنى لشاعرة، ثم قالت:

مُذمَّمًا عصينا. وأمره أبينا. ودينه قلينا

ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله أما تراها رأتك؟ فقال: ما رأتنى، لقد أخذ الله ببصرها عنى[1][2].

(١) ابن هشام (١/ ٣٣٥، ٣٣٦).

(٢) رواه البيهقى (٢/ ١٩٥) والحاكم (٢/ ٣٦١) وصححه ووافقه الذهبى، وانظر صحيح السيرة النبوية للعلامة الألبانى رحمه الله (ص١٣٧-١٣٨).

كيف كانت نهاية أبى لهب

شاء الله أن يموت أبو لهب بعد غزوة بدر. . ولكن تأمل كيف كان موته عبرة لمن يعتبر.

لقد أصيب بمرض شديد اسمه العدسة وكان من الأمراض الشديدة المُعدية وكانت قريش تخشى من ذلك المرض.

فلما أُصيب بهذا المرض ومات تركه ابناه بعد موته ثلاثة أيام ما دفناه حتى أنتن حتى قال لهما رجل من قريش:

ويحكما، ألا تستحيان أن أباكما قد أنتن فى بيته لا تدفنانه؟ فقالا: إنا نخشى عدوة هذه القرحة. فقال: انطلقا فأنا أعينكما عليه، فوالله ما غسلوه إلا قذفًا بالماء عليه من بعيد ما يدنون منه، ثم احتملوه إلى أعلى مكة، فأسندوه إلى جدارٍ، ثم رجموا عليه بالحجارة.

* * *

نهاية أم جميل (زوجة أبى لهب)

فبعد أن كانت تأتى كل يوم بحزمة كبيرة من الشوك وترميه فى طريق النبى ﷺ . . . جاء اليوم الذى كان فيه هلاكها.

فبينما هى تحمل حزمة من الشوك فتعبت فجلست لتستريح فجذبها المَلَك من خلفها فخنقها بحبلها.

قال ابن كثير عن أم جميل:

«كانت عونًا لزوجها على كفره وجحوده وعناده، فلهذا تكون يوم القيامة عونًا عليه فى عذابه فى نار جهنم، ولهذا قال: ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾[1] يعنى: تحمل الحطب فتلقى على زوجها، ليزداد على ما هو فيه، وهى مهيأة لذلك، مستعدة له»[2].

❊ ❊ ❊

(١) سورة المسد: الآيتان: (٤، ٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٣٥).

إيذاء عقبة بن أبى معيط للنبى ﷺ

* عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «بينما رسول الله ﷺ يصلى عند البيت، وأبو جهل وأصحابٌ له جلوس، وقد نُحرت جَزور[1] بالأمس، فقال أبوجهل: أيكم يقوم إلى سلا[2] جزور بنى فلان فيأخذه فيضعه فى كتفى محمد إذا سجد.

فانبعث أشقى القوم عقبة بن أبى معيط فأخذه، فلما سجد النبى ﷺ وضعه بين كتفيه، قال فاستضحكوا[3]، وجعل بعضهم يميل على بعض، وأنا قائم أنظر، لو كانت لى منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ... والنبى ساجد، ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة. فجاءت فطرحته عنه، ثم أقبلت تشتمهم، فلما قضى النبىُّ

(١) الجزور: الناقة.

(٢) سلا: اللفافة التى تكون فى بطن الناقة وسائر الحيوان، وهى من الآدمى المشيمة.

(٣) استضحكوا: حملوا أنفسهم على الضحك والسخرية ثم أخذهم الضحك جداً، فجعلوا يضحكون ويميل بعضهم على بعض.

صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم.

وكان إذا دعا دعا ثلاثًا، وإذا سأل سأل ثلاثًا، ثم قال: «اللهم عليك بقريش» ثلاث مرات.

فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته، . . . ثم قال:

«اللهم عليك بأبى جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة وأمية بن خلف، وعقبة بن أبى معيط» فوالذى بعث محمدًا ﷺ بالحق! لقد رأيت الذين سمَّى صرعى يوم بدر(١).

* بلى وفى يوم من الأيام دعا عقبة بن أبى معيط زعماء قريش إلى الطعام ودعا رسول الله ﷺ معهم. . فوافق النبى ﷺ عسى أن يسمعوا كلام الله. . فلما قدّم له عقبة الطعام رفض النبى ﷺ أن يأكل حتى ينطق عقبة الشهادتين. . فنطق عقبة الشهادتين من وراء قلبه حتى يأكل النبى ﷺ . . فأكل النبى ﷺ ودعاهم إلى

(١) رواه البيهقى (٢/ ١٩٥)، والحاكم (٢/ ٣٦١).

الله ثم انصرف وكان هناك صديق لعقبة بن أبى معيط مسافرًا وهو أُبى بن خلف.. فلما عاد قال له المشركون: لقد أسلم عقبة وصبأ ودخل فى دين محمد ﷺ... فذهب إليه مُغضبًا وقال له: كيف تُسلم وتترك دين الآباء والأجداد... لن أكلمك حتى تكفر بمحمد وتذهب لتؤذيه.

فذهب عقبة إلى النبى ﷺ وجذبه من ثوبه وخنقه خنقًا شديدًا وتفل فى وجه النبى ﷺ حتى جاء أبو بكر ودافع عن رسول الله ﷺ فمات عقبة بن أبى معيط يوم بدرٍ كافرًا ونزل فيه قول الله (عز وجل): ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾ (١).

* بل لقد حاولوا قتل النبى ﷺ أكثر من مرة ونجَّاه الله (عز وجل).

(١) سورة الفرقان: الآيات: (٢٧-٢٩).

* ولم تكتفِ قريش بالإيذاء الجسدى للنبى ﷺ بل تعدَّى ذلك إلى الإيذاء المعنوى. . . فلقد اتهموه بأنه شاعر وساحر ومجنون وطردوه من مكة وهو يبكى ويقول: والله إنك لأحب بلاد الله إلى الله وإنك لأحب بلاد الله إلى رسول الله ولولا أن قومى أخرجونى منك ما خرجت.

* بل وصل الأمر إلى أن اتهموا النبى ﷺ فى عرضه وشرفه. . . فاتهموا أمنا عائشة رضي الله عنها زوج النبى ﷺ بأنها فعلت الفاحشة. . ونزلت براءتها من فوق سبع سماوات بقرآنٍ يُتلى إلى يوم القيامة فى سورة النور.

إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما

وفى وسط هذا الظلم والإيذاء الشديد للنبى ﷺ وأصحابه حدث ما لم يتوقعه المشركون. . . فلقد أسلم حمزة بن عبد المطلب الذى كان الناس يعملون له ألف

حساب بسبب قوته وشجاعته.

وأسلم عدد آخر من الرجال.. على رأسهم: عمرو ابن عبسة وضماد الأزدى وأبو ذر الغفارى.

ولكن الضربة القاضية لظهر المشركين بعد إسلام حمزة هى إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فقد أسلم عمر بعد إسلام حمزة بأيام وذهب إلى دار الأرقم وأسلم بين يدى النبى ﷺ.. وأصر على أن يخرجوا جميعًا أمام المشركين ليعرفوا أن المسلمين قد أصبحوا أقوياء.

* وخرج المسلمون لأول مرة يجهرون بكلمة التوحيد أمام المشركين فى صفَّين.. على رأس الصف الأول عمر ابن الخطاب.. وعلى رأس الصف الثانى حمزة بن عبد المطلب. فعرف المشركون أن المسلمين قد أصبحوا أقوياء - بفضل الله جل وعلا -.

* * *

إن إسلام (عمر) كان فتحًا

ولقد كان إسلامه سببًا عظيمًا فى ظهور الإسلام وقوته، وذلك لما كان يتميز به من القوة والشجاعة فكان لا يخاف فى الله لومة لائم.

* قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر»[1].

وقال عبد الله بن مسعود: إن إسلام عمر كان فتحًا، وإن هجرته كانت نصرًا، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشًا حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه.

وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة.

* * *

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٦٨٤) كتاب المناقب.

المشركون يعرضون على النبى ﷺ المال والمنصب

لما أكثر المشركون من التعذيب والاستهزاء والسخرية بالمسلمين رجاء أن يصدهم ذلك عن دينهم، وكان المسلمون لا يزدادون بذلك إلا إيمانًا ويقينًا، فلما لم يفلحوا فى ذلك، لجأوا إلى أسلوب آخر - بِلُغَةِ العصر أكثر دبلوماسية - فأرادوا أن يعرضوا على النبى ﷺ عروضًا لعله يرجع عما هو عليه، أو يتنازل عن بعض الحق الذى يدعو إليه، فمن هذه العروض أنهم أرسلوا عتبة بن ربيعة ليعرض على الرسول ﷺ ما قد رآه حلاً للمشكلة(١).

فأتاه عتبة، فقال: يا محمد أنت خير أم عبد الله؟ - يعنى أباه -.

فسكت النبى ﷺ، قال: أنت خير أم عبد المطلب؟

(١) وقفات تربوية (ص: ٨٨).

فسكت رسول الله ﷺ، قال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك، فقد عبدوا الآلهة التى عبدناها، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك، أما والله ما رأينا أحدًا أشأم على قومك منك، فرَّقت جماعتنا، وشتَّت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا فى العرب، حتى طار فيهم أنَّ فى قريش ساحرًا، وأنَّ فى قريش كاهنًا.

* والله ما بقى إلا أن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف فنتقاتل حتى نفنى يا محمد: إن كنت تريد مُلكًا ملَّكناك.. وإن كنت تريد المال أعطيناك من أموالنا ما تشاء وإن كنت مريضًا داويناك.

فلما انتهى الرجل من كلامه قال له رسول الله بكل أدبٍ: أفرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم.

قال: فاسمع منى، ثم تلا قول الله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1].

(١) سورة فصلت: الآيات: (١-٣).

فلما انتهى رسول الله؛ قام عُتبة إلى أصحابه فقال لهم: والله لقد سمعت قولاً إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لَمُثْمر، وإن أسفله لَمُغْدِق، ما هو بالشِّعر ولا بالكَهَانة، ولا بقول البشَر، فاتركوا محمداً وأمْره.

فلئن ظهر فَمُلْكُه مُلكُكُم، وإن كان غَير ذلك هَلك وحده.

فقالوا: سَحَرك يا أبا الوليد بِلِسَانه.

فقال لهم: لا تَقُولوا ساحر، ولا كاهن، ولا مَجنون، بل قُولوا: إنه يُفرق بَيْن المرءِ وزوجه، فنزل القرآن يذكر هذه الحادثة، ويذَم عُتبة بن ربيعة[1]، ويتوعده بالعذاب فى الآخرة.

* * *

(١) انظر آيات سورة المدثر: الآيات: (١١-١٣).

الهجرة الأولى إلى الحبشة

كانت بداية الاضطهادات فى أواسط أو أواخر السنة الرابعة من النبوة بدأت ضعيفة ثم لم تزل يومًا فيومًا وشهرًا فشهرًا حتى اشتدت وتفاقمت فى أواسط السنة الخامسة.

* فلما رأى رسول الله ما يُصيب أصحابه منَ البَلاء، ومما هُو فيه من العافية لمكانه من الله ومن عمِّه أبى طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: «**لو خرجتُم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحدٌ، وهى أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه**». فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفرارًا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة كانت فى الإسلام[1].

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٦٦).

* كان الرحيل إلى الحبشة تسللاً فى الخفاء، حتى لا تستيقظ قريش للأمر فتُحبطه، ولم يبدأ كذلك على نطاق واسع، بل كان الفوج الأول مكونًا من بضع أُسر، فيهم رقية ابنة النبى عليه الصلاة والسلام وزوجها عثمان بن عفان، ونفر آخر من المهاجرين لم يزيدوا جميعًا عن ستة عشر. وقد يمموا شطر البحر حيث قيضت لهم الأقدار سفينتين تجاريتين أبحرتا بهم إلى الحبشة، فلما خرجت قريش فى آثارهم إلى الشاطئ كانوا قد انطلقوا آمنين[1].

مفاجأة لا تخطر على البال

وفى رمضان فى نفس السنة خرج النبى ﷺ إلى الحرم، وهناك جمعٌ كبير من قريش كان فيه ساداتها وكبراؤها، فقام فيهم، وأخذ يتلو سورة النجم بغتة.

إن أولئك الكفار لم يكونوا سمعوا كلام الله قبل ذلك؛ لأن أسلوبهم المتواصل كان هو العمل بما تواصى به

(١) فقه السيرة للغزالى (ص: ١٣٠).

بعضهم بعضًا، من قولهم: ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[1] فلما باغتهم بتلاوة هذه السورة وقرع آذانهم كلام إلهى رائع وبقى كل واحد مصغيًا إليه، لا يخطر بباله شيء سواه، حتى إذا تلا فى خواتيم هذه السورة ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾[2] ثم سجد - لم يتمالك أحدٌ نفسه حتى خر ساجدًا[3].

فسجد المشركون خلف النبى ﷺ وأصحابه.

وبلغ هذا الخبر إلى مهاجرى الحبشة، ولكن فى صورة تختلف تمامًا عن صورته الحقيقية... بلغهم أن قريشًا أسلمت، فرجعوا إلى مكة فى شوال من نفس السنة فلما وصلوا إلى مكة عرفوا حقيقة الأمر بأن قريشًا مازالت على شركها.

فرجع منهم من رجع إلى الحبشة.. ومنهم من دخل مكة مستخفيًا ومنهم من دخل فى حماية رجل من أقربائه المشركين.

---

(١) سورة فصلت: الآية: (٢٦).

(٢) سورة النجم: الآية: (٦٢).

(٣) صحيح: رواه البخارى (١٠٧١) كتاب الجمعة.

الهجرة الثانية إلى الحبشة

لما علمت قريش برجوع بعض الذين هاجروا إلى الحبشة الهجرة الأولى سلطت عليهم من العذاب ألوانًا وضاعفت عليهم العذاب.

فلم ير الرسول ﷺ بُدًّا من أن يشير على أصحابه بالهجرة مرة أخرى إلى الحبشة. وكانت هذه الهجرة الثانية أشق من سابقتها، فقد تيقظت لها قريش وقررت إحباطها. لكن المسلمين كانوا أسرع. فخرج منهم فى هذا الفوج ثلاثة وثمانون رجلاً وتسع عشرة امرأة، ويسَّر الله لهم السفر فانحازوا إلى نجاشى الحبشة. ووجدوا عنده ما يبغون من أمان وطيب جوار وكرم وفادة.

* وعاش المسلمون فى رحاب النجاشى أسعد حياة فى بلاد الحبشة ولما علمت قريش بتلك الهجرة أرسلت خلفهم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة - وكانا

مازالا على الشرك -.

أرسلتهم قريش بالهدايا إلى النجاشى ليرد إليهم هؤلاء المهاجرين فرفض النجاشى أن يردهم وبخاصة بعد أن تكلم معه جعفر بن أبى طالب وأخبره بحقيقة ما حدث للنبى ﷺ وأصحابه فتعاطف معهم النجاشى ورفض أن يردهم إلى المشركين وجعلهم يعيشون معه فى أمنٍ وأمان... بل وأسلم بعد ذلك وأسلم معه عدد كبير من الأحباش وكان يراسل النبى ﷺ.

وظل المسلمون فى أمان حتى عادوا إلى المدينة فى فتح خيبر.

* ولما مات النجاشى وعلم النبى ﷺ بذلك قام ليصلى عليه هو وأصحابه صلاة الغائب.

* * *

الصحيفة الظالمة والمقاطعة العامة

فلما رأت قريشٌ أمرَ رسول الله ﷺ يعلو، والأمور تتزايد، أجمعوا على أن يتعاقدوا على بنى هاشم، وبنى عبد المطلب، وبنى عبد مناف، أن لا يُبايعوهم، ولا يُناكِحوهم، ولا يُكلموهم، ولا يُجالِسُوهُم حتى يُسلِّموا إليهم رسولَ الله ﷺ وكتبوا بذلك صحيفة، وعلَّقوها فى سقف الكعبة.

وانحاز بنو هاشم وبنو المطلب (مؤمنهم وكافرهم) إلا أبا لهب فإنه وقف فى صف كفار قريش فى عداوتهم لرسول الله ﷺ.

وحُبس النبى ﷺ ومن معه فى شِعب أبى طالب ثلاث سنوات فقد منع المشركون عنهم الطعام فلم يكن لهم طعام إلا ورق الشجر حتى تقرحت أشداقهم وبلغ بهم الجهد مبلغًا شديدًا حتى كان الناس يسمعون صوت بكاء الأطفال وصُراخ النساء من وراء الشِّعب.

وكان الصحابة إذا قدمت عير إلى مكة، يأتى أحدهم السوق ليشترى شيئًا من الطعام قوتًا لعياله فيقوم أبو لهب فيقول: يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد ﷺ حتى لا يدركوا معكم شيئًا. وقد علمتم مالى ووفاء ذمتى فأنا ضامن لا خسار عليكم، فيزيدون عليهم فى السلعة قيمتها أضعافًا حتى يرجع أحدهم إلى أطفاله وهم يصرخون من الجوع. وليس من يده شىء يطعمهم به. ويغدو التجار على أبى لهب فيُربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس حتى تعب المؤمنون ومن معهم من شدة الجوع والعرى.

نقض الصحيفة الظالمة

وكانت قريش بين راضٍ وكارهٍ لهذه المقاطعة... وقد أحزنت تلك الآلام التى حدثت للمسلمين بعض ذوى الرحمة من قريش فكان أحدهم يحمل الزاد والطعام على ظهر البعير ثم يضربه فى اتجاه الشِّعب ليصل إلى

المحصورين فيخفف عنهم شيئًا من الفقر والجوع والحرمان.

* ثم سعى بعض الناس من قريش فى نقض هذه الصحيفة وكان القائم بهذا السعى هشام بن عمرو بن ربيعة.. فقد ذهب إلى مُطعم بن عدى وجماعة من قريش فوافقوا على ذلك.

ولكن أمر الله كان قد سبقهم.. فقد أخبرهم النبى ﷺ بأن الله قد سلَّط على الصحيفة حشرة «الأَرَضة» فأكلت كل الشروط الظالمة من الصحيفة ولم يبق منها إلا كلمة واحدة: «باسمك اللهم».

* ثم رجع بنو هاشم وبنو المطلب إلى مكة.. وحصل الصلح بالرغم من أنف أبى جهل.

* * *

عام الحزن

وما إن خرج النبى ﷺ وأصحابه من شِعب أبى طالب حتى تتابعت عليه المحن والأحزان... فقد مات عمه أبو طالب الذى كان يدافع عنه وينصره... ولم تكن المصيبة فى موته فحسب بل كانت المصيبة فى أنه مات كافراً مع أن النبى ﷺ كان يتابعه بالدعوة حتى آخر لحظة فى عمره.

* عن المسيب رضي الله عنه قال: «لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل، وعبد الله بن أبى أمية ابن المغيرة. فقال رسول الله ﷺ: «يا عم قل لا إله إلا الله. كلمة أشهد لك بها عند الله»[1].

فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية: يا أبا طالب! ترغب عن ملة عبد المطلب! فلم يزل رسول الله ﷺ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٣٦٠) كتاب الجنائز، ومسلم (٢٤) كتاب الإيمان.

يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم، هو على ملة عبد المطلب، وأبَى أن يقول: لا إله إلا الله.

فقال رسول الله ﷺ: «أما والله! لأستغفرن لك ما لم أُنه عنك» فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾[1] وأنزل الله تعالى فى أبى طالب فقال لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[2][3].

* وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه: قال للنبى ﷺ: ما أغنيت عن عمك فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: «هو فى ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان فى الدرك الأسفل[4] من النار»[5].

(١) سورة التوبة: الآية: (١١٣).
(٢) سورة القصص: الآية: (٥٦).
(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٣٨٨٤) كتاب المناقب، ومسلم (٢٤) كتاب الإيمان.
(٤) الدرك الأسفل: قعر النار.
(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٣٨٨٣) كتاب المناقب، ومسلم (٢٠٩) كتاب الإيمان.

ولما مات أبو طالب وجدت قريش فرصة كبيرة لإيذاء النبى ﷺ فقد مات الذى كان يدافع عنه... فقام واحد من سفهاء قريش وألقى التراب على رأس النبى ﷺ... حتى قال النبى ﷺ: «**ما نالت منى قريشٌ شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب**».

* وكانت وفاة أبى طالب فى رجب سنة عشر من البعثة بعد الخروج من الشِّعب بستة أشهر.

* وما كاد النبى ﷺ يخلع ثوب الحزن على عمه حتى فُجع بموت زوجته وشريكة عمره خديجة رضي الله عنها التى آزرته ونصرته وبذلت نفسها ومالها لنُصرة هذا الدين... وكانت نعم الزوجة.

وكانت وفاتها فى شهر رمضان فى السنة العاشرة من النبوة، ولها خمس وستون سنة على أَشْهَرِ الأقوال، ورسول الله ﷺ إذ ذاك فى الخمسين من عمره.

وحزن النبى ﷺ لموتها حزنًا شديدًا فلقد كانت نعم الزوجة الصابرة المخلصة التى آزرته طوال حياته وبذلت

من أجل نُصرة هذا الدين كل غالٍ ونفيس فلم يستطع النبى ﷺ أن ينساها أبدًا وكان يحمل لها وفاء يعجز القلم عن وصفه.

فها هو الحبيب ﷺ يُثنى عليها ويقول: «كَمُل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران - وخديجة بنت خويلد - وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»(١).

* وقد علَّق أحد العلماء الأفاضل على هذا الحديث تعليقًا لطيفًا فقال: من الموافقات اللطيفة التى جمعت الثلاث فى نسق واحد أن كل واحدة منهم كفلت نبيًّا مُرسَلاً، وأحسنت صحبته وآمنت به، فآسيا ربَّت موسى، وأحسنت إليه، وصدقت به حين بُعث، ومريم كفلت عيسى وربته، وصدقت به حين أُرسل، وخديجة رغبت فى النبى وواسته بنفسها ومالها، وأحسنت صحبته، وكانت

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤١١) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٤٣١) كتاب فضائل الصحابة.

أول من صدَّقه حين نزل عليه الوحى.

ولم يتـزوج النبى ﷺ امرأة قـبلهـا أبدًا.. بل ولـم يتزوج عليها حتى ماتت.

فـعن عائـشة رضي الله عنها قـالت: لم يتـزوج النبى ﷺ على خديجة حتى ماتت (١).

* وعن أنس رضي الله عنه أن النبى قال: «حسبُك من نساء العالمين مريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون»(٢).

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «سيدات نساء أهل الجـنة بعد مريم بـنت عمران فـاطمة وخـديجة وآسـية امرأة فرعون»(٣).

* * *

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٤٣٦) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) صحيح: رواه الترمـذى (٣٨٧٨) كتاب المناقب، وصـححه العلامـة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٣١٤٣).

(٣) صحيح: رواه الطبرانى فى الكبير (١١/ ٤١٥ ، رقم ١٢١٧٩)، وفى الأوسط (٢/ ٢٣ ، رقم ١١٠٧)، وصحـححه العلامـة الألبانى رحمـه الله فى السـلسلة الصحيحة (١٤٢٤).

زواج النبى ﷺ بسودة ثم عائشة رضي الله عنهما

لقد كان أصحاب الحبيب ﷺ يعرفون قدر خديجة رضي الله عنها عند النبى ﷺ فعندما ماتت كانوا يرجون أن يرزقه الله (عز وجل) بما يخفف عنه من آلامه وأحزانه. . ولكن لم يكن أى واحد منهم يجرؤ أبدًا أن يكلم النبى ﷺ فى أمر الزواج فشاء الحق (جل وعلا) أن تتجرأ واحدة من فُضليات نساء الصحابة ألا وهى خولة بنت حكيم لتعرض هذا الأمر على رسول الله ﷺ من أجل إدخال الفرح والسرور على قلبه المحزون.

جاءت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون فقالت: يا رسول الله ألا تزوج قال: «من؟».

قالت: إن شئت بكرًا، وإن شئت ثيبًا».

قال: «فمن البكر؟».

قالت: ابنة أحب خلق الله إليك عائشة بنت أبى بكر.

قال: «ومن الثيب؟».

قالت: سودة بنت زمعة قد آمنت بك واتبعتك على ما تقول.

قال: «فاذهبي فاذكريهما عليَّ».

فدخلت بيت أبي بكر فقالت: يا أم رومان ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة؟

قالت: وما ذاك؟.

قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة.

قالت: انتظري أبا بكر حتى يأتي.

فجاء أبو بكر فقالت: يا أبا بكر ماذا أدخل عليك من الخير والبركة!.

قال: وما ذاك؟

قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة.

قال: وهل تصلح له؟ إنما هي ابنة أخيه.

فرجعت إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له قال: ارجعي إليه فقولي له: «أنا أخوك، وأنت أخي في الإسلام، وابنتك تصلح لي» فرجعت فذكرت ذلك له.

* لكن كانت هناك مشكلة كبيرة.. وهى أن أبا بكر كان قد وعد مُطعم بن عدى أن يزوج ابنه من عائشة فأراد أبو بكر أن يجد حلاً لهذه المشكلة وبخاصة أنه ما وعد أحدًا وعدًا فأخلفه أبدًا.

ذهب أبو بكر إلى مطعم بن عدى وكانت عنده امرأته أم الفتى الذى كان يريد أن يتزوج عائشة...

فقالت هذه المرأة لأبى بكر: إنى لأخشى إن تزوج ابنى من ابنتك عائشة أن تجعله مسلمًا ويترك دين الآباء والأجداد... أى أنها لا تريد إتمام هذه الزيجة.

فنظر أبو بكر إلى مطعم بن عدى وقال له: ما رأيك.

قال: رأيى مثل رأيها.

فخرج أبو بكر وهو يحمد الله أن يسَّر له الخروج من هذا الوعد دون أن يكون هو الذى أخلف وعده.

فرجع فقال لخولة: ادعى لى رسول الله ﷺ، فدعته فزوَّجها إياه، وعائشة يومئذٍ بنت ست سنين.

ثم خرجت فدخلت على سودة بنت زمعة فقالت: ما

أدخل الله عليك من الخير والبركة؟

قالت: وما ذاك؟

قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطبك إليه.

قالت: وددت، ادخلي إلى أبي فاذكري ذلك له. وكان شيخًا كبيرًا قد أدركه السن قد تخلف عن الحج، فدخلت عليه فحيته بتحية الجاهلية.

فقال: من هذه؟

قالت: خولة بنت حكيم.

قال: فما شأنك؟

قالت: أرسلني محمد بن عبد الله ﷺ أخطب عليه سودة.

فقال: كفء كريم، ماذا تقول صاحبتك؟

قالت: تحب ذلك.

قال: ادعيها إلي.

فدعيتها قال: أي بنية، إن هذه تزعم أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب قد أرسل يخطبك وهو كفء كريم،

أتحبين أن أزوجك به؟ قالت: نعم.

قال: ادعيه لى، فجاء رسول الله ﷺ فزوجها إياه.

* وأما عائشة فقد عقد عليها النبى ﷺ قبل الهجرة وهى بنت ست سنوات وتزوجها وبنى بها بعد الهجرة وقد بلغت من العمر تسع سنوات.. وكانت فى هذا السن ناضجة بالغة تستطيع أن تتحمل عبء الحياة الزوجية.

* * *

النبى ﷺ يخرج ليدعو أهل الطائف

فى شوال سنة عشر من النبوة خرج النبى ﷺ إلى الطائف، وهى تبعد عن مكة نحو ستين ميلاً، سارها ماشيًا على قدميه ذهابًا وعودة، ومعه مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه، وكان كلما مر على قبيلة فى الطريق دعاهم إلى الإسلام، فلم تستجب إليه واحدة منها؛ وهنا لنا أن نتساءل: لماذا اختار رسول الله ﷺ الطائف وقبيلة ثقيف دون غيرها واتجه إليها؟

لماذا اختار النبى ﷺ الطائف؟

لقد كانت الطائف قريبة جدًا من مكة وكانت من أهم البلاد لأهل مكة.

ولقد حاولت مكة فى الماضى أن تضم الطائف إليها، كما كان كثير من أغنياء مكة يملكون الأملاك فى الطائف

ويقضون فيها فصل الصيف، فإذا استطاع النبى ﷺ أن يجد له فيها موضع قدم وعصبة تناصره؛ فإن ذلك سيُفزع قريشًا، ويهدد أمنها ومصالحها الاقتصادية تهديداً مباشراً، علاوة على أنها تقترب من مكانة مكة عند العرب.

فلما انتهى النبى ﷺ إلى الطائف ذهب إلى ثلاثة إخوة من رؤساء ثقيف، وهم: عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفى، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله، وإلى نصرة الإسلام، فقال أحدهم: هو يَمْرُط ثياب الكعبة (أى يمزقها) إن كان الله أرسلك، وقال الآخر: أما وَجَدَ الله أحداً غيرك، وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً، إن كنت رسولاً لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام! ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى أن أكلمك، فقام عنهم رسول الله ﷺ وقال لهم: «**إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى**».

وأقام رسول الله ﷺ بين أهل الطائف عشرة أيام،

لا يدع أحدًا من أشرافهم إلا جاءه وكلَّمه، فقالوا: اخرج من بلادنا، وأغروا به عبيدهم، فلما أراد الخروج تبعه عبيدهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، فوقفوا له صفين وجعلوا يرمونه بالحجارة، وبكلمات من السَّفَه، ورجموا عَرَاقِيبهُ، حتى اختضب نعلاه بالدماء - فداه أبي وأمي ونفسي - وكان زيد بن حارثة رضي الله عنه يقيه بنفسه حتى أصيب بجرح في رأسه، ولم يزل به السفهاء كذلك حتى ألجأوه ﷺ إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة على ثلاثة أميال من الطائف، فلما التجأ إليه رجعوا عنه.

وأتى رسول الله ﷺ إلى شجرة عنب فجلس تحت ظلها إلى جدار، ودعا ربه فقال: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدوٍّ ملَّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسعُ لي، أعوذُ بنور

وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن ينزل بى غضبك أو يحل علىَّ سخطك، لك العُتبى حتى ترضى، لا حول ولا قوة إلا بك».

فلما رآه ابنا ربيعة تحركت له قلوبهما، فدعوا غلامًا لهما نصرانيًّا يقال له: عَدَّاس، وقالا له: خذ قطفًا من هذا العنب، واذهب به إلى هذا الرجل.

فلما وضعه بين يدى رسول الله ﷺ مد يده إليه قائلاً: «بسم الله»، ثم أكل، فقال عَدَّاس: إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له النبى ﷺ: «من أى البلاد أنت؟ وما دينك؟» قال: أنا نصرانى من أهل نِينوى، فقال رسول الله ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متَّى؟»، قال له: وما يدريك ما يونس بن متَّى؟ قال رسول الله ﷺ: «ذاك أخى، كان نبيًّا وأنا نبى»، فأكبَّ عدَّاس على رأس رسول الله ﷺ ويديه ورجليه يقبلها.

فقال ابنا ربيعة أحدهما للآخر: أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاء عداس قالا له: ويحك ما هذا؟ قال: يا

سيدى، ما فى الأرض شىء خير من هذا الرجل، لقد أخبرنى بأمر لا يعلمه إلا نبى، قالا له: ويحك يا عداس، لا يصرفنَّك عن دينك؛ فإن دينك خير من دينه[1].

وكان فى إقبال عَدَّاس على رسول الله ﷺ وتصديقه وإكرامه بتقبيل يديه ورجليه وبكائه أمامه، ثم رقة ابنى ربيعة للرسول ﷺ وسماعهما كلام عداس بمثابة اعتذار فعلى لرسول الله ﷺ وتهدئة لنفسه.

وهكذا أسرعت إشارات الخير والكرامة والإجلال، فأقبلت تعتذر عن الشر والسفاهة والطيش، وجاءت القُبُلات بعد كلمات العداوة، وكان ابنا ربيعة من ألدِّ أعداء الإسلام، وممن مشوا إلى أبى طالب من أشراف قريش يسألونه أن يكفه عنهم أو يخلى بينهم وبينه، أو ينازلوه إياه حتى يهلك أحد الفريقين، فانقلبت الغريزة الوحشية إلى معناها الإنسانى الذى جاء به هذا الدين؛ لأن المستقبل الدينى للفكر الصائب لا الغريزة العمياء.

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٢١).

وقفل الرسول ﷺ عائدًا إلى مكة، إلى البلد الذى طرد خيرة أهله، فهاجر بعضهم إلى الحبشة وأكره الباقى على معاناة العذاب الواصب، أو الفرار إلى الجبال، ورجع رسول الله ﷺ فى طريق مكة بعد خروجه من الحائط كئيبًا حزينًا كسير القلب، فلما بلغ قرن المنازل بعث الله إليه جبريل عليه السلام ومعه ملك الجبال، يستأذنه أن يُطبق الأخشبين (أى الجبلين) على أهل مكة.

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أُحُدٍ؟ فقال: «لقد لقيتُ من قومك، وكان أشد ما لقيتُ منهم يوم العقبة، إذ عرضتُ نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كُلال فلم يُجبنى إلى ما أردتُ، فانطلقتُ وأنا مهمُومٌ على وجهى، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعتُ رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى، فنظرتُ فإذا فيها جبريل عليه السلام، فنادانى فقال: إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمُره بما شئت فيهم، قال: فنادانى ملك الجبال وسلم علىَّ ثم

قال: يا محمدُ، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أن أُطبق عليهم الأخشبين، فقال له رسول الله ﷺ: «بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا»(١)(٢).

هكذا كانت الرحمة في قلب النبي ﷺ للناس من حوله.

ولا عجب في ذلك فقد قال الله عنه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(٣).

❊ ❊ ❊

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٢٣١) كتاب بدء الخلق، ومسلم (١٧٩٥) كتاب الجهاد والسير.

(٢) مدرسة السيرة النبوية / الشيخ محمد يعقوب (ص: ٢٧٨ : ٢٨١).

(٣) سورة الأنبياء الآية: (١٠٧).

إسلامُ نفرٍ من الجن فى وادى نخلة

وفى طريق عودته من الطائف، أقام الرسول ﷺ أيامًا فى وادى نخلة القريب من مكة، وخلال فترة إقامته هذه بعث الله إليه نفرًا من الجن استمعوا إلى القرآن الكريم، وأسلموا وعادوا إلى قومهم منذرين ومبشرين كما ذكر الله تعالى فى كتابه العزيز: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1].

ومن سياق هذه الآيات يتبين لنا أن النبى ﷺ لم يعلم حضور ذلك النفر من الجن حين حضروا وسمعوا، وإنما علم بعد ذلك حين أطلعه الله عليه بهذه الآيات، وأن حضورهم هذا كان لأول مرة، ثم وَفَدُوا بعد ذلك مرارًا.

(١) سورة الأحقاف: الآيات: (٢٩-٣١).

قصة الإسراء والمعراج

حبايبى الحلوين.

قبل أن نبدأ ذكر قصة الإسراء والمعراج فلا بد أن نُكثر من الصلاة على النبى محمد بن عبد الله ﷺ.

رحلة الإسراء والمعراج كانت تكريمًا لشخص النبى ﷺ

وفى ظل هذه الأحزان الشديدة التى تعرض لها النبى ﷺ كان من رحمة الله بالنبى ﷺ أن أكرمه برحلة الإسراء والمعراج لتكون تكريمًا له ﷺ، وتسلية له عما أصابه من المصائب والأحزان ليزداد يقين النبى ﷺ بنجاح دعوته وتبليغ رسالة ربه (جل وعلا) والنصر على أعدائه.

وفى هذه الرحلة أطلعه الله على أشياء عظيمة من

ملكوته العظيم حتى امتلأ قلب النبى ﷺ بالنور والرضا والطمأنينة.

رحلة الإسراء وشق صدر النبى ﷺ

كان النبى ﷺ نائمًا فى بيت أم هانئ بنت أبى طالب وكان بيتها عند شِعب أبى طالب.

وفجأة انفتح سقف بيتها ونزل جبريل (عليه السلام) فتعجب النبى ﷺ وسأل جبريل عن سبب نزوله فأخبره جبريل أنه لابد أن يخرج معه الآن إلى المسجد.

فخرج معه النبى ﷺ إلى المسجد وإذا بجبريل (عليه السلام) يشق صدر النبى ﷺ ثم يغسله بماء زمزم ثم جاء بطست من الذهب قد امتلأ حكمة وإيمانًا فأفرغها فى صدر النبى ﷺ ثم أغلق صدره.

ونحن نعلم يا أحبابى أن جبريل (عليه السلام) شق صدر النبى ﷺ ثلاث مرات:

المرة الأولى: وهو صغير يلعب مع الغلمان فأخذه

جبريل فصرعه فشق صدره واستخرج القلب واستخرج منه علقة وقال له: هذا حظ الشيطان منك ثم غسل صدر النبى فى طست من ذهب بماء زمزم ثم أعاد صدره كما كان.

والمرة الثانية: عند بعثة النبى ... فقد فعل جبريل معه مثلما فعل فى المرة الأولى لكن زاد فى هذه المرة أن ختم فى ظهر النبى ﷺ خاتم النبوة.

والمرة الثالثة: عند رحلة الإسراء والمعراج.

النبى ﷺ يركب البُراق

وبعد أن غسل جبريل صدر النبى ﷺ أتاه بالبُراق.

والبُراق: هو دابة أبيض طويل وهو أكبر من الحمار وأصغر من البغل.

وهو سريع جداً يضع حافره عند آخر شىء يراه ببصره.

فخطوته كبيرة جداً يقطع بها المسافات الطويلة فى

وقت قصير.

* فلما أراد النبى ﷺ أن يركب البراق استصعب عليه فلم يتمكن النبى ﷺ من ركوبه.. فقال جبريل للبراق: أتفعل هذا بمحمد ﷺ؟ فوالله ما ركبك أحدٌ أكرم على الله منه ﷺ.

* وما هى إلا دقائق معدودات حتى وصل النبى ﷺ إلى بيت المقدس ثم ربط جبريل البراق بالحلقة التى كان يربط بها الأنبياء (صلوات ربى وسلامه عليهم).

ثم دخل النبى ﷺ المسجد وصلى فيه ركعتين.

ثم خرج النبى ﷺ بعد ذلك وإذا بجبريل ينتظره فى الخارج ومعه إناء فيه خمر وإناء آخر فيه لبن.

فنظر جبريل إلى النبى ﷺ وقال له: يا رسول الله: أيهما تختار: الخمر أم اللبن؟

فاختار النبى ﷺ اللبن.

فقال له جبريل (عليه السلام): لقد اخترت الفطرة[1].

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٢) كتاب الإيمان.

رحلة المعراج

وبعد أن انتهت رحلة الإسراء بدأت رحلة المعراج فجاء جبريل (عليه السلام) بالمعراج العظيم الذى يصل من الأرض إلى السماء.. وهو السُّلَّمُ الكبير الذى صعد عليه النبى ﷺ فى جزء يسير من الليل إلى السماوات السبع.

ويا لها من رحلة عظيمة يعجز القلم عن وصفها.

فالنبى ﷺ أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم عُرج به إلى السماوات السبع ثم عاد فى جزء يسير من الليل.

❊ ❊ ❊

المشاهد التى رآها النبى ﷺ فى رحلة الإسراء والمعراج [1]

لقد رأى النبى ﷺ فى رحلة الإسراء مشهداً عجيباً!!!

يا ترى ما هو المشهد الذى رآه النبى ﷺ فى رحلة الإسراء؟

لقد رأى موسى (عليه السلام) وهو يصلى فى قبره.

قال ﷺ: «مررت على موسى ليلة أُسرى بى عند الكثيب الأحمر وهو قائم فى قبره يصلى».

النبى ﷺ يرى الأنبياء ويسلم عليهم

ففى رحلة المعراج لما صعد النبى ﷺ مع جبريل (عليه السلام) إلى السماء الدنيا فقالت الملائكة لجبريل: من هذا الذى معك.

(١) انظر البخارى (٣٢٠٧) كتاب بدء الخلق، ومسلم (١٦٢) كتاب الإيمان.

قال جبريل : هذا محمد رسول الله ﷺ .

فرحبت به الملائكة ترحيبًا شديدًا وفرحوا بلقاء النبى ﷺ فرحًا عظيمًا . . . فالنبى ﷺ هو حبيب أهل الأرض والسماء .

صعد النبى ﷺ إلى السماء الأولى فوجد فيها رجلاً وقورًا عن يمينه أُناس كثيرون وعن يساره أُناس كثيرون .

فإذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر عن شماله بكى .

فسأل النبى ﷺ جبريل (عليه السلام) وقال له : «من هذا الرجل؟» .

فقال جبريل: هذا آدم (عليه السلام) وهؤلاء الذين عن يمينه وشماله هم أولاده . . . فالذين عن يمينه هم أهل الجنة .

فإذا نظر إليهم ضحك . . والذين عن شماله هم أهل النار فإذا نظر إليهم بكى .

فاقترب النبى ﷺ من أبينا آدم (عليه السلام) وسلَّم عليه فردَّ عليه السلام وقال له : مرحبًا بالنبى الصالح

والابن الصالح.

* ثم صعد النبى ﷺ إلى السماء الثانية فسألت الملائكة جبريل (عليه السلام): من هذا الذى معك؟

فقال جبريل: هذا محمد رسول الله ﷺ.

ففرحت الملائكة به فرحًا عظيمًا... وفتحت له أبواب السماء الثانية.

فلما صعد النبى ﷺ إلى السماء الثانية وجد فيها عيسى ويحيى عليهما السلام، فقال له جبريل عليه السلام: هذا يحيى وعيسى فسلِّم عليهما فسلم النبى ﷺ عليهما فردّا عليه السلام وقالا له: مرحبًا بالنبى الصالح والأخ الصالح.

* ثم صعد النبى ﷺ إلى السماء الثالثة فسألت الملائكة جبريل (عليه السلام) من هذا الذى معك؟

فقال جبريل: هذا محمد رسول الله ﷺ.

ففرحت الملائكة به فرحًا عظيمًا.. وفتحت له أبواب السماء الثالثة.

فلما صعد النبى ﷺ إلى السماء الثالثة وجد فيها يوسف (عليه السلام).

فقال له جبريل (عليه السلام): هذا يوسف فسلِّم عليه.

فسلم النبى ﷺ عليه فردّ السلام وقال له: مرحبًا بالنبى الصالح والأخ الصالح.

* ثم صعد النبى إلى السماء الرابعة فسألت الملائكة جبريل (عليه السلام) من هذا الذى معك؟

فقال جبريل: هذا محمد رسول الله ﷺ.

ففرحت الملائكة به فرحًا عظيمًا... وفتحت له أبواب السماء الرابعة فلما صعد النبى ﷺ إلى السماء الرابعة وجد فيها إدريس (عليه السلام) فقال له جبريل (عليه السلام): هذا إدريس فسلِّم عليه.

فسلم النبى ﷺ عليه فردَّ السلام وقال له: مرحبًا بالنبى الصالح والأخ الصالح.

* ثم صعد النبى ﷺ إلى السماء الخامسة فسألت الملائكة جبريل (عليه السلام): من هذا الذى معك؟

فقال جبريل: هذا محمد رسول الله ﷺ.

ففرحت الملائكة به فرحًا عظيمًا... وفتحت له أبواب السماء الخامسة.

فلما صعد النبى ﷺ إلى السماء الخامسة وجد فيها هارون (عليه السلام).

فقال له جبريل (عليه السلام): هذا هارون فسلِّم عليه.

فسلم النبى ﷺ عليه فردَّ عليه السلام وقال له: مرحبًا بالنبى الصالح والأخ الصالح.

* ثم صعد النبى ﷺ إلى السماء السادسة فسألت الملائكة جبريل (عليه السلام) من هذا الذى معك؟

فقال جبريل: هذا محمد رسول الله ﷺ.

ففرحت الملائكة به فرحًا عظيمًا... وفتحت له أبواب السماء السادسة.

فلما صعد النبى ﷺ إلى السماء السادسة وجد فيها موسى (عليه السلام).

فقال له جبريل (عليه السلام): هذا موسى فسلِّم عليه.

فسلم النبى ﷺ عليه فردّ السلام وقال له: مرحبًا بالنبى الصالح والأخ الصالح.

فلما جاوزه النبى ﷺ ليصعد إلى السماء السابعة وإذا بنبى الله موسى يبكى فقيل له: ما يُبكيك؟.

قال: أبكى لأن محمدًا ﷺ يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتى.

* ثم صعد النبى إلى السماء السابعة فسألت الملائكة جبريل (عليه السلام): من هذا الذى معك؟

فقال جبريل: هذا محمد رسول الله ﷺ.

ففرحت الملائكة به فرحًا عظيمًا... وفتحت له أبواب السماء السابعة.

فلما صعد النبى ﷺ إلى السماء السابعة وجد فيها إبراهيم(عليه السلام) فقال له جبريل (عليه السلام): هذا إبراهيم فسلّم عليه.

فسلم النبى ﷺ عليه فردَّ السلام وقال له: مرحبًا بالنبى الصالح والابن الصالح.

* فرأى النبى ﷺ إبراهيم (عليه السلام) مُسندًا ظهره إلى البيت المعمور فى السماء السابعة.

فسأل النبى ﷺ جبريل (عليه السلام): ما هذا البيت؟

فقال جبريل: هذا البيت المعمور يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك فإذا خرجوا لم يعودوا إليه... يعنى كل يوم سبعون ألف ملك غير الذين قبلهم.

النبى ﷺ يرى سدرة المنتهى

ثم رأى النبى ﷺ سدرة المنتهى ووجد أن الثمرة الواحدة فيها مثل الجرَّة الكبيرة التى كانت تُصنع فى قرية هجر فى البحرين... ورأى ورقها مثل آذان الفيلة.

فسأل النبى ﷺ جبريل (عليه السلام): ما هذا.

فقال: هذه سدرة المنتهى.

* ورأى النبى أربعة أنهار: نهران ظاهران ونهران باطنان فسأل النبى ﷺ جبريل (عليه السلام) وقال: «ما هذا؟».

فقال جبريل: أما النهران الباطنان فنهران فى الجنة وأما

النهران الظاهران فالنيل والفرات.

* ثم أتى جبريل للنبى ﷺ إناءً من خمر وإناءً من لبن وإناءٌ من عسل فاختار النبى ﷺ اللبن.

فقال جبريل: هذه هى الفطرة التى أنت عليها وأمتك.

فرض الصلاة على النبى ﷺ وأمته

ثم فُرضت الصلاة على النبى ﷺ وأمته خمسين صلاة كل يوم.

فعاد النبى ﷺ... وفى طريق العودة مرَّ النبى ﷺ على موسى (عليه السلام) فسأله موسى وقال: بأى شىء أمرك الله (جل وعلا).

فقال النبى ﷺ: «أُمرت بخمسين صلاة كل يوم».

فقال موسى (عليه السلام): إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم وإنى والله قد جربت الناس قبلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك.

فعاد النبى ﷺ إلى ربه وسأله التخفيف فوضع الله

عنه عشرًا فأصبحت أربعين صلاة.

فعاد النبى ﷺ إلى موسى (عليه السلام) فقال له نفس الكلام وقال له: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك.

فعاد النبى ﷺ إلى ربه وسأله التخفيف فوضع عنه عشرًا فأصبحت ثلاثين صلاة.

وظل النبى ﷺ على تلك الحالة حتى أصبحت الصلاة خمس صلوات... فلما قال له موسى (عليه السلام): ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك.

قال له النبى ﷺ: «لقد سألت ربى حتى استحييت ولكن أرضى وأسلِّم».

فإذا بالحق (جل وعلا) يجعلها خمس صلوات ولكن بأجر خمسين صلاة.

* * *

رؤية النبى ﷺ
لمالك خازن النار والمسيح الدجال

وفى هذه الرحلة المباركة رأى النبى ﷺ أشياءً عجيبة.

وكان من بين تلك الأشياء التى رآها النبى ﷺ أنه رأى المسيح الدجال الذى يظهر فى آخر الزمان.. ووصفه النبى ﷺ لأصحابه وصفًا دقيقًا.

ورأى النبى ﷺ مالكًا خازن النار وطلب جبريل (عليه السلام) من النبى ﷺ أن يسلم على مالك فسلم النبى ﷺ عليه فردَّ عليه السلام.

ولقد وصفه النبى ﷺ لأصحابه وأخبرهم بأنه كريه المنظر.. وذلك ليكون زيادة فى عذاب أهل النار.

* * *

رؤية النبى ﷺ للذين يغتابون الناس

وفى هذه الرحلة رأى النبى ﷺ منظرًا عجيبًا...

فلقد رأى النبى ﷺ قومًا لهم أظفار من نحاس يُقطعون بها وجوههم وصدورهم فتعجب النبى ﷺ وسأل جبريل (عليه السلام) وقال له: «من هؤلاء يا جبريل؟».

فقال جبريل: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم.

أى: هؤلاء الذين يغتابون الناس ويقولون عنهم كلامًا سيئًا فى غيبتهم.

رؤية النبى ﷺ لخطباء أمته الذين يقولون ما لا يفعلون

وفى هذه الرحلة أيضًا رأى النبى ﷺ منظرًا عجيبًا.

لقد رأى النبى ﷺ قومًا تُقرض وتُقطع شفاههم بمقاريض من النار فسأل جبريل (عليه السلام) وقال: «من

هؤلاء يا جبريل؟».

فقال جبريل: هؤلاء خطباء أمتك الذين كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون.

مرور النبى ﷺ
على رائحة ماشطة ابنة فرعون

وفى هذه الرحلة . . . بينما كان النبى ﷺ يصعد مع جبريل (عليه السلام) إلى السماوات السبع إذ مرت عليه رائحة طيبة فتعجب النبى ﷺ.

وسأل جبريل: ما هذا يا جبريل؟

فقال جبريل: هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها.

فسأله النبى ﷺ عن قصتها.

فقال جبريل (عليه السلام): هذه امرأة كانت تعمل فى قصر فرعون وكانت وظيفتها أنها ماشطة ابنة فرعون. . فهى التى تربيها وتمشط شعرها وتدبر كل أمورها.

وفى يوم من الأيام كانت هذه الماشطة تمشط شعر ابنة فرعون فسقط منها المشط فمدت يدها وقالت: بسم الله.

فقالت ابنة فرعون: أبى؟!

فقالت الماشطة: إن أباك ليس إلهًا.. ولكنى أقول: بسم الله الذى هو ربى وربك ورب أبيك.

فقالت ابنة فرعون: سأخبر أبى بذلك.

فقالت الماشطة: افعلى ما شئت.

فذهبت ابنة فرعون لأبيها وأخبرته أن الماشطة تعبد إلهًا غيره فأرسل إليها فرعون وسألها: هل تعبدين إلهًا غيرى؟

فقالت الماشطة: أعبد الله ربى وربك ورب العالمين.

فأمر فرعون ببقرة من نُحاس فأُحميت فى النار ثم أمر الجنود والحراس بأن يلقوها هى وأولادها فيها حتى يموتوا جميعًا.

فطلبت من فرعون طلبًا واحدًا.. وهو أن يجمع عظامها وعظام أولادها بعد الموت ويجعلهم جميعًا فى قبرٍ واحد.

فوافق فرعون على ذلك.

وأمر الجنود بالقضاء عليها هى وأولادها.

فبدأوا يأخذون أولادها واحدًا واحدًا ويلقوه فى البقرة النحاسية ليموت أمام أمه.

وهى ترى هذا المشهد المفزع أمام عينيها وتصبر وتحتسب.

إلى أن جاء الدور على طفلها الصغير الذى تُرضعه فأخذوه من على صدرها فكادت أن تُفتن فأنطق الله طفلها الرضيع فقال: يا أمى اقتحمى فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة.

فاقتحمت وألقت بنفسها فى البقرة النحاسية فماتت.

فأكرمها الله (جل وعلا) بأن تحولت رائحة عظامهم بعد الحرق إلى رائحة طيبة شمَّها النبى ﷺ فى رحلة المعراج.

* * *

النبى ﷺ يرى الجنة والنار

وفى هذه الرحلة المباركة رأى النبى ﷺ الجنة والنار... لقد رأى النار.. ورأى بعض مشاهد العذاب لأهل النار... ورأى الجنة.. ورأى بعض مشاهد نعيم أهل الجنة.

هبوط النبى ﷺ إلى بيت المقدس

وبعد هذه الرحلة العظيمة عاد النبى ﷺ مع جبريل (عليه السلام) وهبطا مرة أخرى إلى بيت المقدس وهبط معه كل الأنبياء الذين رآهم النبى ﷺ فى السماوات السبع.

ودخلوا جميعًا بيت المقدس فصلى بهم النبى ﷺ إمامًا ليعرف الكون كله أن النبى ﷺ هو سيد الأولين والآخرين.

ثم ركب النبى ﷺ البراق وعاد إلى مكة مرة أخرى.

* وكان وقت هذه الرحلة العظيمة هو جزء يسير من الليل.

قريش تكذب النبى ﷺ

ولما عاد النبى ﷺ إلى مكة وحكى لبعض أصحابه عن تلك الرحلة وصل الخبر لكفار قريش فسخروا من النبى ﷺ وقالوا له: أتزعم أنك أُسرى بك من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم عُرج بك إلى السماء السابعة ثم عُدت مرة أخرى فى جزء يسير من الليل.

فقال النبى ﷺ: «نعم».

فقال أحدهم: فهل تستطيع أن تصف لنا المسجد الأقصى؟

فوافق النبى ﷺ على ذلك.. وبدأ يصف لهم المسجد لكنه لم يستطع أن يُكمل الوصف لأنه رأى المسجد ليلاً ولم يكن قد رأى كل شىء بوضوح... فأمر الله الملائكة فجاءت بالمسجد الأقصى حتى وضعته أمام النبى

ﷺ فأخذ النبى ﷺ ينظر إليه ويصفه لكفار قريش وهم يتعجبون من دقة الوصف رغم أنهم يعلمون أن النبى ﷺ لم يذهب إلى هناك.

موقف أبى بكر الصديق من رحلة الإسراء والمعراج

ولما سمع المشركون عن رحلة الإسراء والمعراج ذهبوا إلى أبى بكر الصديق رضي الله عنه وقالوا له: إن محمداً يزعم أنه أُسرى به الليلة إلى المسجد الأقصى فى جزء من الليل ونحن نقطع هذه المسافة فى شهر كامل فماذا تقول يا أبا بكر؟

فقال أبو بكر: إن كان النبى ﷺ قال ذلك فقد صدق.. إنى لأصدقه فى خبر السماء أفلا أصدقه فى بيت المقدس.

* فلما رأى النبى ﷺ تكذيب كفار قريش له، قال لجبريل (عليه السلام): «يا جبريل إن قومى لا يصدقونى».

فقال جبريل: يصدقك أبو بكر وهو الصِّديق.

النبى ﷺ يعرض نفسه على القبائل

حرص الرسول ﷺ على الاجتماع بالناس وتبليغهم دعوة الإسلام، وكان يتحرى مواضع اجتماع القبائل وخاصة فى موسم الحج وفترات عقد أسواق العرب، حيث كان يلتقى بذوى الشأن من رؤساء القبائل وغيرهم، وكان يطالب الرؤساء بحمايته دون أن يُكرِه أحدًا على قبول دعوته.

* ولم يعرف اليأس يومًا طريقه إلى قلب الرسول ﷺ . . . فقد كان حريصًا على هداية الناس جميعًا وكان يتمنى أن يأخذ بأيدى الناس جميعًا إلى جنة الرحمن (جل وعلا).

* وفى تلك الفترة أسلم بعض الناس مثل: إياس بن معاذ وسُويد بن صامت ولكن النبى ﷺ كان يطمع فى إسلام المزيد من العرب القادمين إلى مكة.

إسلام ست نسمات من أهل يثرب

نحن نعرف أن يثرب (المدينة المنورة) كانت من أهم مدن أرض الجزيرة.. فهى معروفة بزراعة التمر.. وكان العرب يحبون التمر لأنه طعامهم الأساسى ومنه يصنعون الخمر أيضًا.

وكذلك فإن يثرب هى ممر القوافل التجارية لقريش.

* وكان أهل يثرب ينقسمون إلى قبيلتين هما الأوس والخزرج وكان بين القبيلتين نزاعات وحروب طاحنة دامت لسنواتٍ طويلة لأسبابٍ تافهة.. وكان من أشهر تلك الحروب (يوم بُعاث) وهو اليوم الذى قُتل فيه عدد كبير من الأوس والخزرج.

* وكان من مصلحة اليهود الذين يعيشون فى يثرب أن تظل الحروب قائمة بين الأوس والخزرج لأنهم كانوا يتاجرون فى السلاح فكلما هدأت نار الحرب بينهما

أشعلها اليهود حتى يستفيدوا من بيع السلاح للطرفين.

* وظلت الحروب دائرة بين الأوس والخزرج لسنوات طويلة حتى استنفذت أموالهم وقتلت رجالهم ويتَّمت أطفالهم.. حتى إن بعضهم كان يتمنى أن يجد سبيلاً لوقف هذا النزيف من الدماء والأموال.

* وفى المقابل كان اليهود يخبرون أهل يثرب أن الأرض تتهيأ الآن لاستقبال نبى آخر الزمان... وأنهم - أى اليهود - سيتبعون هذا النبى... وكان اليهود يطمعون فى أن يكون هذا النبى منهم.

وظل اليهود يقولون هذه البشارة لكل الناس حتى انتشر فى ربوع يثرب كلها أن الأرض تتهيأ الآن لاستقبال نبى آخر الزمان.

* وفى موسم الحج من سنة ١١ من النبوة.. يوليو سنة ٦٢٠م خرج النبى ﷺ يدعو الناس إلى دين الله (جل وعلا) ولم يستجب له أحد.. ولكنه لم ييأس أبدًا.

وبينما كان النبى ﷺ يبحث عمَّن يكلمه ويدعوه

إلى الله وجد ستة من الشباب يحلقون رؤوسهم فى مكان يُسمى (العقبة).. وكانوا من عُـقلاء يثرب الذين تعبوا من شدة الحروب ومآسيها.

فكانوا مع موعد مع سعـادة الدنيا والآخرة.. فقد دخل عليهم النبى ﷺ يكلمهم ويدعوهم ويتلو عليهم القرآن ثم عرض عليهم الإسلام فأسلموا ولم يترددوا لحظة واحدة.

فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله. قال بعـضهم لبـعض: يا قوم، تعلمـون والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود، فلا تسبـقنكم إليه، فأجابوه، فيمـا دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام.

وقالوا: إنا قد تركنـا قومنا، ولا قوم بينهـم من العداوة والشر مـا بينهم، فعـسى أن يجمعـهم الله بك، فسنـقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه، فلا رجل أعز منك، ثم انصـرفـوا عن رسول الله ﷺ راجـعـين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدقوا».

بيعة العقبة الأولى

قد ذكرنا أن ستة نفر من أهل يثرب أسلموا فى موسم الحج سنة ١١ من النبوة، وواعدوا رسول الله ﷺ إبلاغ رسالته فى قومهم.

وكان من جراء ذلك أن جاء فى الموسم التالى موسم الحج سنة ١٢ من النبوة، يوليو سنة ٦٢١م اثنا عشر رجلاً، فيهم خمسة من الستة الذين كانوا قد اتصلوا برسول الله ﷺ فى العام السابق والسادس الذى لم يحضر هو جابر بن عبد الله بن رئاب وسبعة سواهم.

* وتمت بيعة العقبة الأولى... فقد بايعوا رسول الله ﷺ على ترك الشرك وعبادة الأصنام والبعد عن المعاصى وعلى الإيمان والطاعة... ووعدهم النبى ﷺ بالجنة إن عاشوا على الإيمان والطاعة.

* ثم ودعهم النبى ﷺ بعد أن عاهدهم وعاهدوه

على اللقاء فى العام التالى.

سفير الدعوة الأول إلى المدينة

وبعدما أتم وفد الأنصار بيعة العقبة الأولى وعادوا إلى المدينة رأى النبى ﷺ أن يبعث معهم رجلاً رحيمًا فقيهًا يعلمهم القرآن والسنة ويفقههم فى الدين... فأرسل معهم مصعب بن عمير الذى ضحى بحياة النعيم والرفاهية ليصبح عبدًا لله (جل وعلا) وداعيةً صادقًا.

* ذهب معهم مصعب بن عمير وأخذ يدعو الناس بالرفق والرحمة حتى أسلم على يديه عددٌ كبير من أهل يثرب (المدينة).. حتى لم يبق بيت فى المدينة إلا دخله الإسلام.

وقبل حلول موسم الحج التالى - أى: حج السنة الثالثة عشرة - عاد مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى مكة يحمل إلى رسول الله ﷺ بشائر الفوز، ويقص عليه خبر